

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية
تصدرها مؤسسة الأزهر

في كل شهر عربي

المجلد الرابع عشر

شعبان سنة ١٣٦٢

٣٧

الجزء الثامن

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فوزي زكريا

الاشتراكات عنه

الإدارة

داخل القطر ٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ٢٠٠
خارج القطر ٣٠٠

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ ملياً داخل القطر و ٣٠ خارج

(مطبعة الأزهر - ١٩٤٣)

فهرس

الجزء الثامه - المجلد الرابع عشر

الدرس الدينى الاول	 بقلم	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر	٣٥٣
السيرة المحمدية - تصدع الوثنية	...	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣٦٢
الفلسفة الاسلامية - إخوان الصفاء	...	الدكتور محمد غلاب	٣٦٦
الفلسفة فى الشرق - إوان	...	فضيلة الأستاذ محمد يوسف موسى	٣٦٩
كلمة تاريخية عن المكتبة الأزهرية	...	أبو الوفا المرائى	٣٧٣
الملاحظ والبيان العربى	...	محمد عبد المنعم خفاجى	٣٧٧
السيرة محمد إقبال	...	حضرة الأستاذ الدكتور محمد ولى خان	٣٨١
للسنة	...	فضيلة الأستاذ طه الساكت	٣٨٥
كلمات فى الاخلاق	...	صاحب العزة عبد السلام محمود بك	٣٨٩
معتزك الفلسفتين	...	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣٩٣
محمود سامى البارودى	...	فضيلة الأستاذ احمد ابراهيم موسى	٣٩٧
بلاغة عبد القاهر	...	رياض هلال	٤٠٠
عثمان بن عفان	...	الشيخ صادق عرجونى	٤٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بأن شهد في شهر رمضان ثلاثة دروس ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي كعادته الكريمة سنوياً، وكان الدرس الأول في الجامع الأزهر، حفل بالوزراء وكبار العلماء ورجال الدولة ووجوه الناس، وكان فضيلته في دروسه هذه كما كان في جميع ما ألقاه باهر البيان، ساطع البرهان قال أيده الله:

مولاي صاحب الجلالة:

هذا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، موسم من أكبر مواسم البر والخير، يشتد فيه اتصال المؤمنين بربهم، وتنشعل فيه عاطفة الخير وعاطفة الاحسان، وقد جرت مادتك فيه على إعزاز كتاب الله، وإحياء سنة السلف الصالح من خيار المؤمنين. تسمع فيه إلى آي الكتاب، وتفسير آي الكتاب، أعزك الله بدينه، وأعز دينه بك، ووفقك للخير وأعانك عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم:

«الْمُحْسِنِ كِتَابَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سُدْرِكَ حَرْجٌ مِنْهُ لِنَنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ . فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ . فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا فَائِزِينَ . وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظَاهُونَ .»

المص، هذه حروف مركبة في الرسم على شكل كلمة. ذات أحرف أربعة، لكنها تقرأ بأسماء هذه الحروف ساكنة هكذا: ألف، لام، ميم، صاد.

وقد افتتح الله سبحانه بعض سور القرآن الكريم ببعض حروف الهجاء، وأسماء هذه الحروف لم توضع لمعان غير هذه الحروف، وأقرب الآراء في تفسيرها أنها أسماء ألقاب للسور

المبتدأة بها ، وعلى ذلك فهذه السورة الكريمة سماها الله سبحانه ، المص ، كما سمى غيرها أَلَمْ ، ون ، وكهيميص ، الى غير ذلك .

كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين .

حرج الصدر ضيقه وغمه ، أخذ من الحرجة التي هي مجتمع الشجر المشتبك الملتف الذي لا يجد السالك فيه سبيلا واضحا ينفذ منه ، ويطلق الحرج على الشك أيضا ، لأن الشك في أمر لا يكون إلا من ضيق الصدر به ، وقلة الاتساع لتوجيه الوجهة الصحيحة ، ولذلك اختلف المفسرون هنا في معنى الحرج ، ففسره بعضهم بضيق الصدر ، وحله بعضهم على الشك كما روى عن ابن عباس ومجاهد ، والانذار التعليم المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة . والذكرى مصدر ذكر الشيء بقلبه أو لسانه ، والاسم منه الذكر بالضم والكسر .

والكتاب والقرآن كلاهما يطلق على السكل وعلى البعض ، تقول : سمعت فلانا يقرأ القرآن أو يتلو كتاب الله إذا سمعت منه بعضه .

ومعنى الآية : أن هذه السورة كتاب أنزله الله إليك لتبلغه للناس كافة ، وتخوفهم سوء عاقبة مخالفة ما فيه من أمر ونهى ، وتذكر به المؤمنين فلا يكن في صدرك ضيق وغم منه أو لا يكن في صدرك شك في أنه من عند الله سبحانه .

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحرج وضيق الصدر في القرآن ، والنهى لا يكون إلا عن أمر ينصور وقوعه ، وهو مظنة الوقوع ، والأمر كذلك هنا من وجهين :

الأول : أن القرآن نفسه عظيم ، واحتماله عظيم وقد قال الله سبحانه فيه « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » . وقال « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من

خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

وقد كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد ، فينفصم عنه الوحى وهو يتفصد عرقاً ، وكان يكاد يهيم أشدة وقعه وعظيم تأثيره ، وأى قلب يحتمل وصدر يتسع لكلام الله سبحانه ينزل به الروح الأمين إذا لم يتول الله سبحانه شرحه ويتول إهائنه على حمله ؟

والوجه الثانى : أنه كلف إبلاغه وهداية الناس به وإصلاحهم ، والمتصدى لذلك لا بد أن يتوقع أذى ومقاومة وعننا ، وأن يلقي أشد الطعن في شخصه وفي الكتاب الذى يحمله . وقد حصل ذلك فعلا حيث لاقى من أهله وعشيرته وقومه ، ولاقى من العرب وغيرهم ما لاقى وقد قال الله سبحانه : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » . وقال له : « واصبر وما

صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » . وقال : « فاعلمك نارك ببعض

ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل إليه كتاباً أو جاء معه ملك » .

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ضيق الصدر على رأى ، أو عن الشك على رأى آخر، وقد جاء مثل هذا النهى عن الشك فى آية أخرى حيث قال الله سبحانه : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قلبك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المتترين » .

وقد جاء النهى على صورة بديعة ، فإن النهى لم يوجه الى النبي صلى الله عليه وسلم فى ظاهر الأمر، وإنما وجه الى الضيق ، فتبهرق الضيق عن أن يكون فى صدره ، وهو أبلغ من توجيه الخطاب اليه وأرفق ، وكان الحرج لو كان مما يصح نهي لوجه اليه النهى فأنته أنت عنه بعدم التعرض له وبعدم التعرض لأسبابه ، ونظيره فى اللغة إذا نهيت شخصاً عن أن يكون عندك : لا أرى نيتك هنا .

وقد كان حق الكلام أن يكون هكذا : كتاب أنزل اليك لتتذبر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لكن النهى جاء قبل قوله لتتذبر به وذكرى للمؤمنين اهتماماً بأمر نفي الحرج قبل الانذار والتذكير ، فإن الانذار لا يكون على الوجه الأكمل إلا إذا انتفى الحرج وانشرح الصدر ، وشرح الصدر يشيع فى النفس السرور وفى الأعضاء النشاط وفى العقل الصفاء ، فيقبل الداعى بمزجة صادقة وهمة ماضية ، وعلى العكس من هذا يفعل ضيق الصدر ، وكل عامل فى عمل من الأعمال البدنية والعقلية فى أشد الحاجة الى توفير همته وصفاء ذهنه ومضاء عزمه وانصراف صدره ، وقد أطلق الله سبحانه الانذار فقال لتتذبر به وفيد الذكري فقال وذكري للمؤمنين كما قال فى آية أخرى هدى للمعتقين .

والسر فيه أن النفوس البشرية على قسمين : نفوس بليدة جامدة جاهلة ركنت الى المادة وقيدتها الشهوات والملمات ، جبات على الايذاء لا تستطيع أن ترى أثر النعمة على الخلق ويلذ لها أن ترى النار تحرق البلاد والعباد . ويؤلمها أن ترى الناس فى هناء ووفاء ، طاقها طبعها عن الشوق الى مقام القدس واستجلاء الأنوار الالهية من العوالم القدسية وعن التعرض لنفحات الحق . ونفوس شريفة مشرقة بجوهرها ؛ حنينها دائماً الى السكال وهمها الوصول الى اللذات الروحية والاتصال بمقام القدس والتعرض لتجليات الحق ، وأن ترى الناس فى سعادة يتقبلون فى النعمة .

وبعثة الأنبياء فى حق القسم الأول انذار وتخويف وترغيب ، فهم فى حاجة الى موقف ومنبه ومخوف ومرغب ، لا يتركون شهواتهم أن تركوها ، ولا تقائصهم أن فارقوها إلا فوق نار تأكل الأبدان وتشوى الوجوه وتحرق الجلود ، كلما نضج جلد بدل بجلد ، وإلا فوق سلاسل وأغلال ، وحيات ومطارق ، والا طمعاً فى مأكل شهى ، ومشرب هنى ، وخمر لذة للشاربين ،

وعسل مصفى ، إلى لذات جسمانية أخرى تضارع لذات الدنيا وتفوقها . أولئك لاحظ لهم في إدراك اللذات الممنوعة الروحية .

وبعثة الأنبياء في حق القسم الثانى تذكير وتنبيه ، فإن نفوسهم بجواهرها مستعدة للاتصال بالحضرة الإلهية ، والتمتع باللذات الروحية ، منجذبة إلى الكمال . لكن هذه النفوس لما اتصت بالأجسام غشيتها غواش من ظلمة الطبيعة فمرض لها نوع من الغفلة يكفى لإزالة سماع الدعوى والتذكير ، وإذ ذاك تذكر شأنها ، وتشتاق إلى ما يناسبها ويليق بها من لذة العلم والمعرفة ، ولذة والتمتع برضوان الله ، وتجد في ذلك روحها وربحانها ، وراحتها وأمنها وأطمئنانها والدكرى تنفع المؤمنين .

وقد قال الله سبحانه : لتنذر به ، ولم يذكر من ينذرهم للإشارة إلى أنه نذير الناس أجمعين وأن رسالته عامة للخلق ، وقد صرح بهذا في آية أخرى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) .

في الآية السابقة طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الانذار ، وفي هذه الآية ذكر الانذار العام الموجه إلى الناس ، وهو طلب اتباع ما أنزل الله سبحانه ، وأتبعه بعد ذلك بالتهديد والتخويف ، كما سيظهر بعد في الآيات التالية .

ذكر هنا اسم الرب سبحانه عند طلب اتباع ما أنزل الله ، وذلك لأن اسم الرب فيه معنى التربية والتدبير والعناية بمن يربيه ويديره ، والمربي يعطى من يربيه حظه في كل طور من أطوار حياته ، يلاحظ جسمه فيعطيه الغذاء الصالح اللائق به ، ويعنمه عن كل شئ يؤذيه ، ويعده للتعليم بقدر ما تحمله حواسه وقواه ، ويلاحظ عند نمو العقل عقاله فيعطيه من المعارف ما يليق به ، ويندرج معه من البسيط إلى المركب ، ومن السهل إلى الصعب ، ويعده للحياة في المجتمع ، ويهيئ له بيئة سليمة من النقائص والمعائب ، بعيدة عن الأحقاد ، ويربيه على أن يعيش مع الناس في مودة ووفاء ، يرحم الفقير البائس ، ويعطف على المسكين ، ويغيث المضطر ، هكذا يفعل المربي الصالح ، والله سبحانه هو المربي الخالق القادر العالم الحكيم ، وقد جاء الدين القيم وفيه نظام تربية الأجسام ، ونظام تربية النفوس ، وتربية العقول . أحل للناس الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، وحرم الإسراف في كل شئ ، وطلب القوام ، ووضع لهم قواعد الأخلاق لأصلاح المجتمع ، وفي القرآن الكريم من هذه النظم ما لو عمل الناس به لماشوا في الجنة وهم في الدنيا . وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والأثم والبغى بغير الحق ، وبين العقائد الصحيحة في عالم الغيب بما لا يصل العقل إليه ، وطلب إلى الناس العلم والمعرفة ، وزهدهم في التقليد والشك .

هذا شأن المربي الحكيم العليم ، فكل نظام من نظمه صالح ، لأنه هو المربي العليم لا يجوز أن يتحلل الناس منه ، ولا أن يتبرموا .

ففي الأديان نظام للبدن ، ونظام للروح ونظام للمجتمع ، والله غنى عن العالمين ، وقد دلت الشواهد على أن في العمل بها سعادة ، وفي تركها شقاء ، وسيظهر ذلك كلما محصت الفتن الخلق وهذبتهم النوائب والشدائد ، ونهبتهم المصائب ، وسيتبين أن ذلك هو الحق ، وأن المصير إليه فيه السعادة والسلام ، وفيه الشفاء من الأسقام ، وفيه الدواء من أدواء الانام ، والله سبحانه ونعم الوكيل . طلب الله سبحانه اتباع أوامره ، ورفض اتباع أوامر غيره ، ونهى عن أن يتخذ من غير الله أولياء يأمرهم بغير ما أمر ، وينهون عن غير ما نهى ، ويحلمون ما حرم ، ويحرمون ما حل ، ويلبسون آيات الله إلى غير وجهتها .

يفسرونها طبقاً لأهوائهم وأغراضهم ، ويبتدعون في دين الله ما ليس منه ، يزيدون عليه ويقسون أطرافه كلما دعته الشهوة ، وحركتهم الأغراض ، فيتخذون آيات الله هزواً ولعباً ، ويجعلونها بضاعة . نجارة أن راحت تمسكوا بها وإن لم ترجع تعرضوا عنها .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق المدبر ، وكان هو الرب المربي عباده طبقاً للعلم والحكمة كان وحده الحقيق بالولاية ، وكان وحده الاحق بالاتباع ، الله وحده ولي الذين آمنوا

« الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت

يخرجونهم من النور إلى الظلمات » . « قل أغير الله أنخذ ولياً فاطر السموات والارض » .

والولاية التي تفرد الله سبحانه بها ولاية الخلق والتدبير ، وولاية الرحمة والثواب وكل شأن من شئون الآخرة ، فهو مالك يوم الدين ، وولاية وضع النظم للإنسان فيما هو غيب . من حقه وحده أن يحلل ويحرم ، ومن حقه أن يضع نظم الجماعة البشرية .

فكل شخص حرم ما أحله الله ، أو حل ما حرمه الله ، فقد جعل نفسه ربا ، وكل شخص اتخذ هذا وليا فقد اتخذه ربا .

لله حق التحليل والتعريم ، وللأنبياء التبليغ عن الله ، وللعلماء التبليغ والبيان عن رسل الله ، يبينون الكتاب بالكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح ، ويفهمونه كما تفهم الأساليب العربية ، بعد إعداد أنفسهم لهذا بالوسائل الحققة الصحيحة ، يجرّدون أنفسهم للحق ، ويخلصونها من المعصية والأهواء ، أولئك هم ورثة الأنبياء .

أما ولاية المؤمنين بعضهم لبعض ، فهي ولاية إرشاد وتعاون ، وتواد وتعاطف وتراحم ، يكونون وحدة اجتماعية للذود عن الدين والوطن ، وأما ولاية أولى الأمر وقادة الأمة فهي

ولاية تنفيذ دين الله ، ونفى الفساد والبغى من الأرض ، والارشاد الى مافيه صلاح العباد في الدنيا والدين ، يطاعون ما أطاعوا الله سبحانه ، ولا طاعة للخلق في معصية الخالق ، عليهم حماية العقيدة الاسلامية ، والأخلاق الاسلامية ، والشرائع الالهية ، ذلك واجب عليهم للجهالة ولهم منها الطاعة بعد ذلك .

قليلًا ما تذكرون .

يعنى تذكر قليلًا تتذكرون ، ما يجب أن يعلم فلا يجهل ، وأن يحفظ فلا ينسى ، وقليلًا ما تتمثلون بالعظات ، هذا هو شأن الانسان ، تحيط به النعمة ويغمره الاحسان فينسى الله ، ونسيه النعمة فينسى الله : (وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره) ، كذلك زين للمصرفين ما كانوا يعملون) ، (وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) ، (فإذا مس الانسان ضر دعائنا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) وكما من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون . فإنا كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين .

القرية مجتمع الناس ، ولا تسمى قرية إلا وفيها مساكن لأهلها ، وسكان منهم ، والبيات الإشارة على العدو ليلاً ، والايقاع به على غفلة ، والقائلون هم الذين يستريحون في النهار وقت القائلة وإن لم يناموا ، والبأس الشدة والقوة والعذاب الشديد ، والدعوى من ممانيتها القول . لما أمر سبحانه باتباع أوامره ، حذرهم في هذه الآية والآية التي بعدها عاقبة المخالفة ، وجزاء المخالفة والعصيان منه ما هو دنيوى ، ومنه ما هو في الدار الآخرة .

وفي هذه الآية تحذير العقاب الدنيوى ، وهو التحذير من النعمة تحل بالقرى فتهلك ، ومن البأس والعذاب يحل بأهلها فيبيدوا .

يقول الله سبحانه أنه كثيراً ما أهلك القرى ، وأنزل عليهم نعمته وعذابه بسبب العصيان ، ومخالفة النظام الالهى ، فبعض القرى جاءها العذاب ليلاً ، وبعض القرى حل بها العذاب نهاراً وقت الراحة . فما كان دعواهم وقولهم إذ جاءتهم أسباب الهلاك وعائشوها وأيقنوا بوقوعه ، إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين معترفين بالذنب ، مقربين باستحقاق العقوبة ، ولا يظلم ربك أحداً .

عقوبة الأفراد على المعصية لا تطرد في الدنيا وتطرد في الآخرة ، وعقوبة الأمم على المعاصى تطرد في الدنيا والآخرة ، يشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت ولم تغير ضرت العامة .

وعصيان الأمم على ضربين ، عصيانها بمخالفة أوامر الله سبحانه وشرائعه ، وعصيانها بمخالفة السنن الكونية الشاملة للأصناف ، فما من نوع إلا أبوتى السلاح الذى به يحافظ على نفسه ، وأوتى

بالغريزة والفطرة قوة المحافظة على الفرد والنوع ، وقد أوتى الانسان قوة عقلية ، وقوة مادية فإذا أهمل ما توجبه الغريزة فقد ضل ، وإذا أهمل ما يوجبه الدين فقد ضل .

وهلاك الأمم على ضربين : هلاك مادي وفناء ظاهر ، وهلاك معنوي وفناء أدبي ، ولكل أمة أجل ، والآجال والمواقيت تختلف باختلاف أحوال الأمم في القوة والضعف ، والقلة والكثرة .

فن الأمم أم بادت بالفرق ، وأم بادت بالصواعق ، وأم بادت بالزلازل والبراكين ، ومن الأمم أم ذلت بعد العز ، وافنقرت بعد الغنى ، وضمفت بعد القوة ، وأصبحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، وخادمة بعد أن كانت سيخادمة ، وجاهلة بعد أن كانت عالمة ، ورعية بعد أن كانت راعية .

إذا فسدت أمة عن أمر ربها ، وضاع منها الحياء من الله ومن الناس ، واسترسلت في الشهوات ، وغرقت في اللذات ، وفشا فيها الظلم ، ولم يقف القوى عند حدود الله ، واغتال أموال الضمفاء والفقراء ، واختل النظام وزال الأمن ، وفقدت الرحمة على البائس والمسكين واليتيم والمحروم ، وانحلت قواها ، وفسد الأمر فيها ، وتمزقت وحدتها - حق عليها الهلاك وجاءها أمر الله وعذابه ليلاً أو نهاراً ، أو هلكت هلاكاً معنوياً فقدت استقلالها ، وأضاعَت كيانها ، والتاريخ شاهد ، والحوادث ناطقة ، والقرآن الصادق يقص الخبر ، ويسوق العبر . وللأمم علاج ، ولها طبيب ، أما طبيبها فهو الله سبحانه ، وأما علاجها فهو القرآن ، فاعلينا إلا أن ترجع إلى هديه ، وتثوب إلى رشده ، وتحافظ على تعاليمه ، وتندبر ممانيه وأغراضه ، وتعمل بها وتقلع عن النقي والفساد ، وعن الظلم والطغيان ، وعن حياة الشهوات واللذات ، وتستمتع بحياة روحية ، وتذوق لذة العلم والمعرفة والمهدى والتقوى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله

بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)

جربنا في تفسير الآية على أن الاهلاك على ضربين : منه بأس بالليل ، ومنه بأس بالنهار ، وعلى ذلك فالأس هو الاهلاك ، والاهلاك هو البأس . أجل ثم فصل ، ففي ذكر الاهلاك دلالة على البأس ، وفي ذكر مجيء البأس الدلالة على الاهلاك : قال أبو جعفر ، وإذا كان ذلك كذلك ، كان سواء عند العرب بدى بالاهلاك ثم عطف عليه البأس ، أو بدى بالبأس ثم عطف عليه الاهلاك ، كقولهم : زرتني فأكرمتني . إذا كانت الزيارة هي الاكرام ، سواء عند تقديم الزيارة وتأخير الكرامة ، أو تقديم الكرامة وتأخير الزيارة ؛ فتقول أكرمتني فزرتني ، أو زرتني فأكرمتني ، وحرف أو هنا للتفصيل .

فإن قيل أقالوا إنا كنا ظالمين قبل الهلاك فيكون قولهم قبل مجيء البأس ، أو بعد الهلاك فتلك حالة قد هلكت فيها ، قيل : ليس كل الأمم كان هلاكها في لحظة ليس بين أوله وآخره

مهل ، وقد يظهر سبب الهلاك ويتيقن به قبل حصوله ، ويكون هناك وقت يكون فيه القول « إنا كنا ظالمين » .

« فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » .

يسأل الله الأمم ماذا عملوا فيما جاءتهم به الرسل من عند الله ، هل عملوا بما أمروا به وانتهوا عما نهوا عنه ؟ ، ويسأل الله الرسل هل بلغوا أو قصروا ، وجاء في سؤال الرسل . « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » . « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » . « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » .

يسأل الله سبحانه هؤلاء وهؤلاء ، ثم يقص عليهم عن علم تام كل ما وقع من الفريقين ، فإنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وما كان غائباً عنهم في وقت من الأوقات ، ولا في حال من الأحوال ، وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً .

هذا السؤال هو الحساب ، ثم يتلوه الجزاء ، وليس هو سؤال استرشاد واستخبار ، بل هو سؤال تقرير وإعلام وإنكار وتوبيخ في حق الأمم ، أما في حق الرسل فليكون جوابهم شهادة على أنهم « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وفي الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فأعدوا المسائل جواباً ، قيل : وما الجواب ؟ ، قال : أعمال البر) وعنه صلى الله عليه وسلم (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه ، كل الناس مسئول ، الإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها) .

تضمنت هذه الآية سؤال الأمم ، غير أنه جاء في آيات أخرى أنه لا يسأل أحد ، مثل قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » وجاء في آيات أنه لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم ومنه قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » وقيل في الجواب عن ذلك : أن للقيامه مواقف متعددة ، فواقف فيها السؤال ، ومواقف لا سؤال فيها ، بل يصرف كل أحد إلى المكان الذي يستحقه ، يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والآقدام . وقيل أن المنفى هو سؤال الاسترشاد ، لأن الله أغنى عن أن يعرف أحوال الناس من الناس ، والتثبت هو السؤال

المؤلم المخزى ، كما يقول الرجل لمن صنع معروفاتهم أنكره : ألم أحسن اليك ، ألم أصلك ، ألم أدفع
المكروه عنك ؟

والوزن يومئذ الحق فن ثقلت موازينه فألتك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك
الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون .

الجزء على حسب الأعمال وهي تتفاوت ، وإنما تضبط بالوزن ، والله يعطى كل واحد جزاء
عمله بالعدل والقسط ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا يظلم ربك أحداً ،
وإن تك مثقال حبة من خردل أثنتنهما وكفى بنا حاسبين ، والأصل في الوزن أنه عمل يراد به
تعرف مقدار الشيء بآلة هي الميزان ، لكنّه يطلق على العدل أيضاً ، ومنه قوله تعالى « أنزل
عليك الكتاب بالحق والميزان » « وأنزلنا عليهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

والمسلمين رأيان في الوزن : الأول أنه العدل التام في تقدير ما به يكون الجزاء ، وقد نقل
ذلك عن مجاهد والاعشى والضحاك من مفسري السلف ، وعليه جمهور المعتزلة ، قال الراغب :
والوزن يومئذ الحق إشارة الى العدل في محاسبة الناس ، كما قال « ونضع الموازين القسط ليوم
القيامة فلا نظلم نفس شيئاً » ، والتجوز بالوزن والميزان في كلام العرب كثير . والرأي الثاني أن
هناك ميزاناً حقيقياً ووزناً حقيقياً ، وعليه أكثر العلماء ، وهم بعد مختلفون في أن الأعمال هي
التي تودع في الميزان ، أو أن صحائف الأعمال هي التي تودع في الميزان ، وفي أن هناك موازين
متعددة ، لكل واحد ميزان ، ولكل عمل ميزان ، أو أن ميزاناً واحداً للجميع .

ومعنى الآية على كل حال ، والوزن في ذلك اليوم الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم هو الحق
الذي تحقق به الأمور ، وتعرف به حقيقة كل واحد ، وحقيقة ما يستحقه من الثواب والعقاب .
فن ثقلت موازينه يعنى رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ، فألتك هم
الفائزون بالنجاة من العذاب ، والفائزون بالنعيم في دار الكرامة .

ومن خفت موازينه أى شالت كفة ميزانه ، ولم ترجح بسبب كفره وعصيانه ، وكثرة
سيئاته ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم وأضاعوها وحرموها ما كان ينبغي أن يكون لها من
الفوز والنعيم ، وهم لم يخسروها إلا بسبب ظلمهم وكفرهم بآيات الله ، فقوله تعالى يظلمون هنا
معناه يكفرون ، وفي آية أخرى إن الشرك لظلم عظيم .

وقد أشارت الآية الى فريقين : فريق المؤمنين الناجين ، وفريق الكافرين الخاسرين ، وهناك
فريق آخر وهم أهل الاعراف سيأتى ذكرهم في آيات أخرى ، ولا شك في تفاوت أفراد كل فريق ،
وأن بعض الأفراد أشد رجحاناً من الآخر في فريق المؤمنين ، وبعض الأفراد أشد خسراً
في فريق الخاسرين ، نسأل الله أن يجمعنا من الفائزين المفلحين أنه سميع الدعاء ؟

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

علامات تصدع الوثنية في البلاد العربية

خمس سرديات ووفدان

بعد أن أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم حرب بني هوازن وأوتى ما ذكرناه في العديدين الماضيين من النصر الحاسم عليهم ، وقد قلنا إن تلك المعركة كانت فاصلة بين الاسلام والوثنية في جزيرة العرب ، عاد رسول الله من معسكره بالجرمارة الى مكة ، ثم الى المدينة بعد أن لبث فيها ثلاث عشرة ليلة ، وكان ذلك لثلاث بقين من ذي القعدة .

أما علامات التصدع في صرح الوثنية فقد يبدو جليا للرأى من أخبار المرأيا والوفود في هذه الفترة من الوقت بين السنة الثامنة والحادية عشرة ، وهي السنة التي انتقل فيها رسول الله الى الملا الأعلى .

السرية الأولى — :

لما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ندب قيس بن سعد على رأس أربع مائة مقاتل لدعوة بني صداء الى الاسلام وهي قبيلة كانت تسكن اليمن . وما كادت تستعد هذه السرية للمسير حتى أقبل رجل من صداء وقابل رسول الله وقال له : يا رسول الله إني جئتكم موفدا بمن ورائي من قومي ، فأردد الجيش وأنا لك بقومي . فأمر رسول الله برد الجيش . وشخص الرجل الى قومه ، ثم أقبل ومعه خمسة عشر رجلا منهم ، ففرلوا ضيوفا على سعد بن عباد ، ثم قابلوا النبي صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام ، وقالوا له نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الاسلام ، وأقبل منهم مائة رجل في حجة الوداع .

السرية الثانية — :

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان العدوي الى بني كعب بن خزاعة لتحصيل زكاة أموالهم ، فذهبهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء مهمتهم ، فأرسل إليهم النبي عينية بن حصن على رأس خمسين فارسا ، فجاءهم وقتلهم ، واقتاد منهم إحدى عشر رجلا وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وأقبل بهم الى المدينة ، فأمر النبي باعتقالهم في دار رملة بنت الحارث .

وفود تميم على رسول الله — :

ما كاد هؤلاء الأسرى يصلون إلى المدينة ، حتى جاء على أثرهم وفد من بني تميم على رأسه عمارد بن حاجب والبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم من أشرفهم ، فجلسوا ينتظرون خروج رسول الله إليهم ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجرانه التي كان يقبع فيها : « يا محمد أخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زين ، وإن ذمنا شين » فخرج إليهم الرسول وقد تأذى من صياحهم ، وكان الوقت نظيرا ، فأذن بلال ، واتجه النبي إلى المحراب ليصلي بالناس ، فتعلق رجال الوفد به وهم يقولون : « نحن رجال من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك » . فقال لهم رسول الله : « ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أمرنا » ثم مضى وصلى الظهر وهم ينظرون . فلما أتم صلى الله عليه وسلم الصلاة اجتمع إليه رجال ذلك الوفد وأخذوا يتمدحون بمفاخرهم ، ومناقب آبائهم . وتكلم عمرو بن الأهتم فدح البرقان بن بدر ، فقال فيه : « إنه لمطاع في أديته ، سيد في عشيرته » .

فقال البرقان : « لقد حسدني ابن الأهتم لشرفي ، وهو يعلم مني أفضل مما قال » . فالتفت عمرو بن الأهتم إلى رسول الله وقال : (إنه لزم من المروءة ، ضيق العطن (١)) ، لئيم الحال) ، فرؤى الغضب في وجه رسول الله لتلون عمرو بن الأهتم في قوله . فقال عمرو ابن الأهتم : « لقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الثانية » رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت » . فأعجب رسول الله بتخلصه من تناقضه وقال : « إن من البيان لسحرا » .

ثم انتهى الأمر بإسلام القوم ، فرد رسول الله عليهم أسرارهم ، وأحسن عائلتهم . ثم مكثوا بالمدينة مدة يتعلمون فيها القرآن ، ويتفقهون في أمور الدين ، ليعلموا قومهم متى عادوا إليهم . إن الذي يتأمل في عقلية هؤلاء القوم يدرك الصعوبة البالغة التي تحول دون نشر دعوة دينية في أمثالهم . إن غرضهم من مجيئهم كان تحرير أسرى أخذوا منهم بحرب ، فأين هذا من مطالب المفاخرة والمفاخرة من الغالب ؟ فما أروع ما يلبس المتأمل في هذا وأمثاله مكان الإعجاز في عمل النبي صلى الله عليه وسلم في بلاد كانت تفص بأشباههم .

إن جاهلية هؤلاء القوم التي حملتهم على استمجال رسول الله لينزل إليهم بالصياح المزعج من وراء حجرانه قائلين : يا محمد أنزل إلينا نفاخرك الخ ، نزل قرآن في استهجانهم ، وهو قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ، لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » ، فسلب من أكثرهم العقل ، أليس في اتهام زميل بالحمس في ظرف كالذي كانوا فيه ما يؤيد معنى هذه الآية .

(١) الزمانة النامة : يقال فلان زمن المروءة ، أو زمن الرغبة أى ضيقها . والعطن مناخ الابل والغنم وفلان ضيق العطن أى فقير .

السرية الثالثة — :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط لتحصيل ذكاة بنى المصطلق ، فلما علم القوم بقدومه خرج منهم عشرون رجلا متقلدين أسلحتهم خفاوة منهم باستقبال وفد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعهم الابل التي أخرجوها للزكاة . فلما وقعت عين الوليد ابن عقبة عليهم ، ظنهم يريدون قتاله ، وقد كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية ، فأسرع بالعود الى المدينة ، وأخبر رسول الله بأنهم أرتدوا عن الاسلام ومنعوه الزكاة ، واقبلوا لمحاربته .

فاضطر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالمثل بعد التثبت من حالهم ، فندب لذلك خالد بن الوليد في عدد من الجنود ، فسار حتى إذا كان بمحلتهم سمع مؤذنين يؤذن الصبح ، فأقبل عليهم ، فلم ير منهم ما يؤخذون عليه من كفر أو عصيان ، فعاد وأخبر رسول الله بما رأى ، فأرسل اليهم رجلا في نفر فحصل منهم ذكاة أموالهم دون أن يحدث شيء من الشغب .

السرية الرابعة — :

نمى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رهطا من الحبشان يحومون حول جدة على سفن يريدون الاغارة عليها ونهبها ، فأرسل إليهم علقمة بن مجزر في ثلاثمائة من الجنود . فلما وصل الى جدة اقتحم البحر على سفن وقصد الى جزيرة كان الأحباش متحصنين بها هنالك ، فلما رأوا المسلمين مقبلين إليهم فروا . فعاد علقمة بمن معه من الجنود ، وبينما هم بالطريق أراد جماعة أن يتعجلوا الوصول الى المدينة ، فأمر عليهم علقمة بن مجزر واحدا منهم اسمه عبد الله ابن حذافة السهمي ، وكان يحب المداعبة ، فأمر رجاله في بعض الطريق أن يشعلوا نارا عظيمة ، ففعلوا ، ثم التفت إليهم وقال : أليس عليكم أن تطيعوني في كل ما أمركم به بوصي أميراء عليكم اليوم ؟ قالوا نعم . قال فإني أمركم أن تلقوا بأنفسكم في هذه النار . فتمعجبوا وحدث بينهم ما يحدث حيال أمر شنيع كهذا ، فأغرق رؤسهم في الضحك حتى قال لهم لا بأس عليكم ، إني كنت مازحا . فلما أخبر بذلك رسول الله استنكره ، ونطق بهذا الأصل الاجتماعي العظيم وهو قوله : « لا طاعة للخلق في معصية الخالق »

السرية الخامسة — :

في شهر ربيع الأول من السنة التاسعة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب في خمسين فارسا لهدم صنم بنى ملهى ، فسار اليه وحطمه ثم أحرقه ، ولكن رجالا من بنى ملهى لم يستطيعوا تحمل هذه الاهانة فانتدبوا لقتال سرية رسول الله ، ولكنهم انهزموا فاستاق المسلمون شاءهم ونعمهم ، وعددا من نسائهم منهم سفانة بنت حاتم الطائي المشهور . فلما رجعت السرية الى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمن عليها بالحرية ، فأجابها الى ما طلبت وأكرمها ، قبل وكانت هذه المعاملة سببا في اسلام أخيها عدي بن حاتم ، وكان

قد فر الى الشام بدينه ، لانه كان قد تنصر قبل البعثة المحمدية . ذلك أن أخنه توجهت اليه بالشام وأخبرته بما حظيت به من إكرام النبي لها . فسألها عن رأيها فيما يفعل ، فقالت له : أرى أن تلحق بمحمد ، فإن كان نبيا كان لك فضل السبق ، وإن كان ملكا فأنت أنت . فعمل بأشارتها . وفود عدى بن حاتم الطائي على رسول الله .

وفد عدى بن حاتم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذه الى داره ، وبينما هما بمشيان ، استوقفت امرأة رسول الله ، فوقف لها طويلا وهي تكلمه في حاجة لها ، فأعجب عدى في نفسه لهذا التواضع وقال ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل داره تناول وسادة من جلد محشوة ليفا ، فقدمها الى عدى وقال له اجلس عليها ، فقال بل أنت تجلس عليها ، فامتنع رسول الله وردها الى عدى وجلس هو على الأرض . ثم قال يا عدى أسلم تسلم . فقال عدى إني على دين ، فقال له النبي : أنا أعلم بدينك منك . فقال عدى : أنت أعلم بديني مني ؟ فقال له النبي نعم ، وعدد له أشياء كان يفعلها بجارة لجاهلية العرب وليست من النصرانية في شيء ، كأخذه المربع وهو ربيع الغنائم .

ثم قال كما رواه أصحاب السير : يا عدى إنما يمنعك من الدخول في الاسلام ما ترى : تقول إنما اتبعه ضعاف الناس ، ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددكم . أتعرف الحيرة ؟ قال عدى : لم أرها وقد سمعت بها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فوالله لينمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل وقد فتحت عليهم .

فأسلم عدى بن حاتم وعاش حتى رأى كل ذلك .

نقول وما قاله النبي صلى الله عليه وسلم كله من اتساع ملك المسلمين ، واتساع دولتهم ، موجود بالمعنى في قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وهملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنهم الدين الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

نزات هذه الآية لما قال بعض المسلمين : ترى هل يؤمننا الله على أنفسنا حتى يعلى أحدنا لا يخاف أن يراه أحد فيبطش به ؟ وقد كان أحدهم إذا صلى خشى أن يراه أحد فيقصده بسوء . وهذا الوعد من أعلام النبوة ، فإن التنبؤ بأن هذه الفئة القليلة ستكون لها دولة في الأرض تؤهلها أن تكون لها الخلافة فيها كما كان للفرس والرومان ، وتحقق ذلك يعتبر من أكبر المعجزات المثبتة حسيا بحيث لا يمكن أن ينكرها إنسان ؟

الفلسفة الإسلامية في الشرق

- ٣ -

جماعة إخوان الصفاء

أشرنا في الفصل السابق الى أن معالجة رسائل إخوان الصفاء ما عرضت له من نظريات فلسفية لم تكن معالجة سطحية أو خفة ، وإنما كانت عميقة ناضجة ، وأشرنا كذلك الى أن ما وصفت به هذه الجماعة رسائلها من أنها زهور من بستان الفلسفة أو قطرات من بحر العلم لم يكن إلا تواضعاً منهم كما هو شأن العلماء المتكئين والجهابذة المتممقين .

على أن القول بعمق هذه الرسائل في كثير من موضوعاتها لا يمنعنا من أن نقرر أن فيها ظاهرة قد تكون إحدى الملل التي حدثت لبعض العلماء الى التجنى على هذه الجماعة والقول بأنها لم تكن فنية ولم تكتب بأسلوب علمي ، وبأنها تمس الموضوعات ولا تسويها ، وهذه الظاهرة هي استعمال الأسلوب القصصي المفعم بالآخيلة والخرافات والذي يشعر القارئ بأنه يطالع حيناً قصيدة من الشعر الفاتن أو صفحة من النثر الخلاب لا يحافظ أولاً بن المقفع ؛ وحيناً آخر بأنه يستعرض إحدى قصص « ألف ليلة وليلة » أو « كلیلة ودمنة » . ولكن إخوان الصفاء قد سلكوا هذه الخطة ، ليجعلوا آراءهم ونظرياتهم في متناول عقول الشباب العادي الذي لم يتشقف ثقافة فلسفية ، لأنهم قد يئسوا من الشيوخ الذين احترقوا علم الكلام وأكثروا فيه الجدل والنقاش ، وهم - في رأي هذه الجماعة - جاهلون يجادلون فيما لا يعلمون ، ويدعون ما لا يحسنون ، ويشوهون الحقائق ، ويخلطون بين الآراء لعجزهم عن فهمها ، وعن إسنادها إلى أربابها ، وفوق ذلك هم في نظرهم غير قابلين للإصلاح ، وهم في هذا يقولون :

« فإذا كان الأمر كما وصفت فينبغي لك أيها الأخ ألا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة ، وعادات رديئة ، وأخلاقاً وحشة فإنهم يتعمنونك ثم لا ينصلحون وإن صلحوا قليلاً قليلاً فلا يفلحون ، ولكن عليك مع الشباب السالمى الصدور ، الراغبين في الآداب المبتدئين بالنظر في العلوم ، المرعدين طريق الحق والدار الآخرة والمؤمنين بيوم الحساب ، المستعملين شرائع الأنبياء عليهم السلام ، الباحثين عن أسرار كتبهم ، التاركين الهوى والجدل ، غير متعصبين على المذاهب . واعلم أن الله تعالى ما بعث نبياً إلا وهو شاب ، ولا أعطى لعبد حكمة إلا وهو شاب كما ذكرهم ومدحهم فقال عز اسمه : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . وقال تعالى : « إنا سمعنا فتى يذكرهم يقل له إبراهيم » . وقال أيضاً عز وجل « وقال موسى لفتهاه » .

واعلم أن كل نبي بعثه الله فأول من كذبه مشايخ قومه المنعاطون الفلسفة والنظر والجدل كما وصفهم تعالى فقال : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون » . (١)

(١) انظر الرسالة الخامسة والأربعين صفحتي ١١٤ و ١١٥ من الجزء الرابع .

على أن إخوان الصفاء ليسوا أول من استعملوا الخرافات في تصوير فلسفتهم وتقريبها من عقول الناشئين ، فان أفلاطون - وهو من لا يجهل مكانته في الفلسفة العالية أحد - قد استخدم الأساطير الإغريقية في عرض مذهبه وصاغه في أسلوب شعري لذيق حتى قال فيه بعض معاصريه : (لكأنني بالنحل أصب جناها على لسان أفلاطون) وإذا ، فلا تنزل هذه الطريقة من قيمة جماعة إخوان الصفاء الفلسفية . ويلوح أيضا أن الباعث لهذه الجماعة على مزجها الآيات القرآنية بمذهبها هو ترغيب الشباب في هذه التعاليم .

مذهب هذه الجماعة :

لعل في نسبتنا الى إخوان الصفاء مذهباً معيناً شيئاً من التجوز ، ماداموا هم أنفسهم يعلمون أنهم لا يفضلون مذهباً على مذهب ولا يقدمون عقيدة على عقيدة ، وإنما كل المذاهب عندهم سواسية ، لأنهم يرجعون كل المذاهب والمقائد الى الوحدة المطلقة التي صدر عنها كل شيء ، والتي لا ينبغي تفضيل أحد الصادرين عنها على الآخر . واليك نص عبارتهم في هذا الشأن : (وبالجملة ينبغي لإخواننا أبدى الله تعالى الأيمانوا علما من العلوم أو بهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتمصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها ، وذلك أنه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها الحسية والعقلية من أولها الى آخرها ، ظاهرها وباطنها ، جليها وخفيها بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد وعلة واحدة وعالم واحد ونفس واحدة محيطة جواهرها المختلفة وأجناسها المتباينة وأنواعها المقتنة وجزئياتها المتغايرة) (١)

لم تكن هذه العمومية عند إخوان الصفاء قاصرة على إقرار المذاهب الفلسفية لحسب ، بل كانت تتناول أيضا القول بصحة جميع الديانات دون تفريق بين ديانة وأخرى ، وهي تشير الى هذا في رموز غامضة فتقول :

« هل لك يا أخى أن تركب معنا في سفينة النجاة التي بناها نوح ؟ أو هل لك أن تنظر معنا في ملكوت السماوات التي رآها إبراهيم حين جن عليه الليل ؟ أو هل لك أن تتم الميعاد فتجئ الى الميقات في الجانب الأيمن ؟ أو هل لك أن تصنع ما ممل فيه القوم كي ينفع فيك الروح ، فتري الإيسوع الى جانب عرش الرب ؟ أو هل لك أن تخرج من ظلمة « أهرمن » حتى ترى « اليزدان » قد أشرق منه النور في فسحة « أفريجون » ؟ أو هل لك أن تدخل الى هيكل « عاديمون » حتى ترى الأفلاك التي يحكمها أفلاطون ؟ أو هل لك ألا ترقد في ليلة القدر حتى ترى الميراج في حين طلوع الفجر حيث أحمد المبعوث في المقام المحمود ؟ ثم يعلقون على هذا بقولهم : « وفقك الله يا أخى الى فهم هذه الاشارات والرموز » (٢) .

(١) انظر صفحتي ١٠٥ و ١٠٦ من الجزء الرابع .

(٢) انظر صفحتي ٨٥ و ٨٦ من هذا الجزء ملخصا .

على أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر أنهم تذهبوا في كثير من الأحيان بمذهب معين ناضلوا عنه وجزموا بصحته كما تبعوا في الرياضة الفيثاغوريين ، وفي الطبيعة وما وراء الطبيعة أرسطو حيناً ، والأفلاطونية الحديثة أو الفيثاغوريين حيناً آخر . وإليك شيئاً من آرائهم في هذه النواحي :

الفلسفة ، درجاتها ، أقسامها :

جعل إخوان الصفاء الفلسفة ثلاث درجات : دنياها محبة الحكمة ، ووسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الانسانية ، وعلمها القول والعمل بما يوافق العلم ثم قسموها الى أربعة أنواع ، وهى : الرياضيات ، والمنطقيات ، والطبيعيات ، والإلهيات . وعندما أن أول ما يجب أن يبدأ به في هذه العلوم الفلسفية الرياضيات ، وأول الرياضيات معرفة خواص العدد ، لأنه أقرب العلوم تناولاً ، ثم الهندسة ، ثم التأليف ، ثم التنجيم ، ثم المنطقيات ، ثم الطبيعيات ، ثم الإلهيات .

الرياضة :

سلك إخوان الصفاء في رسائلهم نفس النهج الذى أشاروا اليه في تعريف الفلسفة ، وهو البدء بالقسم الرياضى ، لأنهم كانوا موقنين بأنه المقدمة الضرورية الأولى لمعرفة جميع علوم الحكمة . والوسيلة المثلى للتدليل على صحة المذهب ، وليس المنطق إلا فرطاً منه رغم كونه قسيمة ، إذ أن الهندسة النظرية هى العامل الأول في تقويم العقل وجعله قادراً على الاستفادة من المنطق ، وهذا هو السر في إلحاقهم المنطق بالقسم الرياضى من رسائلهم . وهالك ما يقولونه في فضل الرياضة وما يبررون به تقديمهم إياها على سائر علوم الفلسفة : « اعلم أيها الأخ البار الرحيم بأنه لما كان من مذهب إخواننا الكرام أيدهم الله النظر في جميع علوم الموجودات التى فى العالم من الجواهر والأعراض ، والبسائط والمجردات ، والمفردات والمركبات ، والبحث عن مبادئها ، وعن كمية أجناسها وأنواعها وخواصها ، وعن ترتيبها ونظامها على ما هى عليه الآن ، وعن كيفية حدوثها ونشوتها عن علة واحدة ، ومبدأ واحد من مبدع واحد جل جلاله . ويستشهدون على بيانها بمثالات عديدة ، وبراهين هندسية مثل ما كان يفعله الحكماء الفيثاغوريون ، احتجاجاً أن نقدم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلها ونذكر فيها طرفاً من علم العدد وخواصه التى تسمى : « الأرتماطيقى » شبه المدخل والمقدمات لكى يسهل الطريق على المتعلمين الى طلب الحكمة التى تسمى الفلسفة ، ويقرب تناولها للمبتدئين بالنظر فى العلوم الرياضية (١) . »

الدكتور محمد غموب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

الفلسفة في الشرق

- ٨ -

الباب الرابع

إيران

أشرنا بأسهاب إلى الأهمية الكبرى التي شغلها التفكير السوميري البابلي في الآلاف الأولى من السنين من التاريخ الأورامسى ، ونذكر الآن أنه ابتداء من القرن السادس ق . م إلى السابع ق . م انتقل تراث ما بين النهرين إلى المملكة الفارسية التي مزجته بالتراث الآرى الأصيل ، وأنه قد سطعت الحضارة التي نشأت عن هذا الامتزاج نحو الشرق كما سطعت نحو الغرب وأصبحت نقطة الاتصال بين أوروبا أو آسيا الأولى التي تقدم بها الزمن والشرق الأقصى . ومما يأسف له مؤرخو الفكر أن أسانيدنا عن العالم الأيراني غير وافية ، وإلا لأمكن تجلية عدة مشاكل خاصة بثقافة أوروبا القديمة .

لقد تأثر بالفرس جميع شعوب الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وشعوب آسيا الأولى ، كما كانوا تأثروا من قبل بالكلدان والآشوريين ، بل إن مصر نفسها والامبراطوريتين المقدونية والرومانية قد تأثرت جميعها بها . وإذا انجبتنا صوب الشطر الآخر من العالم نجد التفكير الفارسمى ساطعاً سطوعاً لا يقل أهمية وظهوراً . فسهول التركستان قد فتحت للإيرانيين وكانوا لا يزالون رحلاً وامتدوا منها إلى الصين ، وظلت علاقات فارس بالشرق الأقصى مستمرة استمراراً لا يكاد ينقطع ، بل إن الثقافة الإيرانية ظلت على اتصال وثيق بالثقافة الهندية بحكم وحدة الأصل الآرى والتضامن الدائم والاتصالات المتكررة خلال التاريخ .

١ - الأديان المختلفة

إن معلوماتنا عن إيران لا تزال ناقصة حتى الآن بسبب عدم وجود أبحاث نقدية أو بيانات تاريخية كافية ؛ إذ أقدم وثيقة وجدت في أجزائها القديمة مشابهاة في اللغة أو تجانس في الروح مع «فيدا» الهندية تؤكد في مجموعها أنها من أعمال القرن الثالث ق . م ، أى بمد مضى ١٥٠٠ عام مما يجب أن تكون عليه ، فن الصعب إذاً التمييز بين ما هو معاصر «لفيدا» وبين ما يرجع إلى عصور أحدث . ومع أن «الافستا» من المؤلفات المعقدة الغامضة المسيرة الفهم ، قائمها لا تعتمدنا بمعلومات عن الطقوس الأولى إلا بأجزائها الحديثة العهد ، أما النصوص

القديمة منها أو « الجانا » فإنها تشير إلى إصلاح في الدين الذي سبقها . ومهما يكن ، فن الممكن أن نذكر على سبيل التعداد بعض العبادات أو الديانات التي ظهرت في تلك البلاد .

أولا — الأسس القويمة لديانة « فيدا » العريقة في القدم ، إذ كان هذا الدين آريا عني السكامة سواء أعرفناه في الأفستا أم في الفيدا . وكان هذا الدين يوجب احترام النار ثم زاد بتبجيل القوى المبهمة كما يؤخذ من المستندات الأقدم عهدا .

ثانيا — ثم ظهر هذا الدين في شكله الإيراني النهائي فأصبح المزدبة . في هذا الدين نرى « أهورا » يأخذ المركز الأصمى بين الكائنات الإلهية بفضل حكمته العليا ، ثم نرى أنه اشترك مع « مازدا » فكونا إله الفرس الأعلى وهو « أهورا مازدا » أو « يردان » الذي كان زرادشت نبيا له ورسولا .

ثالثا — ظهر بعد ذلك « زرادشت » مصلح أقدم الأديان الإيرانية ، وإذا فليس لنا أن نحكم بأن فارس كانت زرادشتية منذ عصورها الأولى . وهذا الدين تنوى يقوم على أصل أو مبدأ لاخير هو « أهورا مازدا » : وآخر للشر هو « أهرمان » ، والأول يجب أن يتغلب على الثاني في النهاية : وهذه الثنوية وإن أخذت تخف وطأتها ، لكنها لا تزال موجودة لأن الطبيعة والانسانية صراع دائم بين الخير والشر .

هذا ، ولما كانت رسالة زرادشت تقوم على إصلاح الديانات الإيرانية التي سبقته ، فقد كان كتابه المقدس « الأفستا » نتيجة جمع هذه الديانات . وهذا الكتاب وضع وضعاً منظماً بأمر أزدشير (٢٢٤ ب . م — ٢٤١ م) أول الملوك الساسانيين رغبة منه في إعادة مجد التقاليد القومية ، بدلا من الهيلينية ، لمقاومة التأثير الروماني . ولكن جاء بعد ذلك الاسلام (أو العاصفة الاسلامية حسب تعبير المؤلف) فهدم هذه الديانة وإن كان لم يمح أثرها تماما .

رابعا — ونشير أيضا إلى الديانة المانوية التي أسسها « مهنى » ولدهذا المفكر الإيراني عام ٢١٥ م ببابل ، وتأثر في طريقته بطريقة يوحنا المعمدان في المسيحية ، بل إنه كان يعتبر نفسه المسيح الثاني الذي بشر به يسوع وسماه « الباركليت » ، ومع هذا فقد كان ثنويا في عقيدته يرى أن الخير في الطبيعة نائم عن الله وأن الشر ناشئ عن قوة ضد الله . أما هو في شخصه فقد كان زاهدا متأثرا في هذا بالهند التي أقام فيها مرتين وبشر فيها بمبادئه ، كما كان يرى أن شفاء الانسان بالمعرفة الصحيحة ، وأن الطهارة من الشر أمر ممكن ، وأنه إذا ما تخلصت أرواحنا من الشر استطاعت أن تبلغ مكانها الطبيعي وهو السماء . وهكذا أصبح الخلاص في تناول الانسان رغم الفكرة الثنوية الأصلية الشديدة ، كما أصبح من الممكن أن يتفق المسيحيون والبوذيون والذرادشتيون . فليس بين الأديان دين يستطيع توحيد « أوراسيا » أكثر من هذا الدين .

٢ - معارف وأفكار إيرانية

كان ضروريا سرد هذا البيان الموجز ليكون في مقدورنا إدراك نصيب إيران في الفكر العالمي ، هذا النصيب الذي استطاع معرفته بسهولة إذا لاحظنا أن عبادتها للنار التي قواها التراث البابلي كانت أساسا مشتركا لكثير من نظريات المعرفة والأخلاق .

لقد أشرنا الى أن هناك من الحقائق الواضحة ما سلم به الكونفوشيوسيون والتقاليد الاغريقية معا ، فهنا وهناك يبدو الأصل السكنداني الفارسي بجلاء . ونجد بمد هذا نصيبا أوضح للروح الإيرانية في فاسطه ما وراء الطبيعة ، وهو يستخلص من رغبة حارة لتحديد المبدأ الأول من ناحية أنه واحد أو متعدد . ويجب أن نلاحظ من ناحية أخرى أن المذهب غير العقلي لعب دورا هاما في التفكير الأوروبي ؛ فيما يتعلق بالمادة عند أفلاطون ، أو بالخطأ والشر بوجه عام . ومن الحق أن الساميين لم يجهلوا القوى الشيطانية ؛ لكن الشيطان باعتباره ضد الإله ، وأصلا للكائنات الشريرة ، وعدوا للدودا لكل سلام وخلص ، لم يظهر لنا بمظهر أوضح من مظهره الإيراني .

ولنشر إشارة قوية الى الدور الحاسم الذي لعبته إيران في الحادث الرئيسي الذي وقع خلال نصف الألف الأخير قبل المسيح ، وهو قيام ديانات إنقاذ وخلص وانتشارها في جميع أنحاء آسيا . وهنا يبدو لنا أن « زرادشت » كان أول من نقل المجهود الديني من ميدان الطقوس والشعائر الى ميدان التحول الداخلي والتطور الروحي ، ولهذا فقد القربان أهميته ولم يبق إلا مجرد رمز بعد أن كان أهم مظاهر العبادة ؛ وربما كان السبب في ذلك أن الذبائح بدت وحشية ، أو أن تكاليفها وتكاليف سائر الطقوس كانت فادحة ينوء بها غير الأغنياء ، فأريد التخلص أو الحط منها . فضلا عن هذا فقد كانت الطقوس لا تتطلب المال الكثير لحسب بل والمعرفة أيضا التي ليست في متناول الجميع .

وإذا كان لابد من وجود مخلص في كل مكان حيث الانتصار على الشر يزيد في وسائل الطبيعة لمقاومته ، كان من الخير أن يكون هذا المخلص شخصا ملهما من الله ، ورجلا بشر به الانبياء يستطيع أن يطهر العالم الطبيعي والعالم الروحي بشرط أن يترك للقوى السماوية عمل القاضى وأن يقنع لنفسه بعمل المبرر المنقذ ، و « زرادشت » كان مثالا من هؤلاء المخلصين .

وربما قيل إن العقلية الفارسية قد أنشأت علم الالهيات النظري لما استعرضت المشكلة التي وضعها أيوب السوميري الذي يعتبر أيوب التوراة صورة ثانية له . ومن أجل هذا وذاك نرى أن تطور الفكرة الالهية مدين للفرس بتحولين مسيطرين على التاريخ الديني . أول هذين التحولين أنهم أحلوا محل الوثنية المتضامنة مع الأديان ذوات الطقوس والشعائر

فكرة إله رئيسي ، إن لم نقل واحدا ، يجمع في نفسه كل شيء ويحقق بإرادته النظام الطبيعي الاخلاقي ، وبذلك تمهدت فكرة الإله الخالق التي ظلت متأخرة زمنا طويلا بسبب التسليم بوجود الصانع « Les démiurges » .

أما الابتكار الثاني فهو أنهم أدخلوا في شخصية هذا الإله الخالد المبرر الأعظم للماضي ، وبعبارة أخرى لوجود ، صفات الخالص التي تنجبه لتبرير المثل الأعلى أي المستقبل . وقد كان « أهوراما زدا » أول من اصطبح بهذا الشكل المزدوج نظرا إلى الرسالة التي كان يقوم بها زرا دشت ، لكن آلام المسيح حولت « ياهوه » إله العبريين إلى إله أب جاءت روحه فتجسدت في العالم ، أما الآلهة السابقون لأصلاح زرا دشت الذين أخذوا شكل الألوهية العظمى فقد أضافوا إلى أنفسهم وظائف الخالقين والمنقذين ، لافرق بين ميترا وفيشنو وسيفا أوزوس وجوير .

إن هذه الاعتبارات من شأنها أن تتيح لنا تقدير المقابلات بين الروح الأغريقية والروح الإيرانية ، بالرغم من أن هذين الشعبين الهنديين الأوربيين كانا متصلين بصلة قرابة أوثق مما يظن ، فبينما الأغريق كان يحاول إدراك الحقيقة من وجهة نظر الأبدية ، كان الفارسي يستعرضها على هامش الزمن ، ولقد أخطأ « جيمس دارمستيتير » - James Darmesteter - خطأ كبيرا لما اعتقد أن المجردات السماوية التي أحاط « أهو راما زدا » نفسه بها كانت المثل الأفلاطونية ، بينما كانت في رأيه رؤساء ملائكة حربيين وقوى إلهية ، فهذه المجردات لم تلهم أفلاطون بل ألهمت « فيلون » في بعض مآذبه إليه ، لقد كان أفلاطون مشوقا لإدراك الثنوية الزرادشتية ، لكننا لا نعرف عن المذاهب الإيرانية في عصره ما يجعلنا نتحقق إذا كان نقل عنها شيئا آخر غير هذه أو تلك من الأساطير ، و « الهيلينيم » في عصرها الزاهد مدينة أكثر إلى السكلدان من الفرس الذين لم يؤثروا إلا في التطور الهليني البيزنطي .

وجدير بنا أن نبحث أخيرا العلاقات بين المسيحيين والفرس لذلك لا بد لنا من الإشارة إلى الدور الذي قام به الآباء اليونان واللاتين في دحض مذهب « ماني » ووضع العقيدة الجديدة ، والتنقيب عن أثر الفلسفة الدينية السورية البابلية على الكنيسة عن طريق أرمينيا أو مصر ؟

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

« الحديث موصول »

كلمة تاريخية عن المكتبة الازهرية

- ٣ -

هـ - الفنون التي بالمكتبة وعدد مجلداتها

نشأت المكتبة الازهرية كما تنشأ المؤسسات العلمية قليلة العدد في الفنون والكتب ثم تكاثرت كتبها وفنونها بطرق مختلفة كالأهداء والنسخ والشراء وتقديم فنون الطباعة والتصوير حتى وصلت الى ما هي عليه الآن .

وكان عدد الكتب التي ابتدأت بها المكتبة سنة ١٨٩٧ - ٧٧٠٣ كتابا منها ٦٦١٧ كتابا بطريق الأهداء و ١٠٨٦ بطريق الشراء وعدد فنونها ٢٧ فنا وهي : المصاحف . القراءات . التفسير . الحديث . الأصول . النحو . الصرف . البلاغة . فقه أبي حنيفة . فقه مالك . فقه الشافعي . فقه أحمد بن حنبل . المجاميع . التوحيد . المنطق . التاريخ . التصوف . الأدب والمديح . الآداب والمواعظ والفضائل . الأحزاب والأوراد والأدعية . الوضع وآداب البحث والمروءة . الفلك والميقات . مصطلح الحديث . الفنون المنوعة . الحساب والهندسة . اللغة . الطب . وقد بلغت فنون المكتبة سنة ١٩٤٣ - ٥٨ فنا وبلغ عدد مجلداتها ٩٠٠٧٥ مجلدا موزعة كالآتي :

رقم	الفن	العدد	رقم	الفن	العدد
١	المصاحف	٣٩٤٤	١١	فقه مالك	٤١٣٠
٢	علوم القرآن	١٠٠	١٢	فقه ابن حنبل	١٦٩٨
٣	القرآن	١٣٧٧	١٣	المجاميع	١٥٩٣
٤	التفسير	٥٢٧٧	١٤	الأصول	٣٤٩٤
٥	الحديث	٨٦٢٤	١٥	التوحيد	٣٨٣٨
٦	المصطلح	١٠٠٣	١٦	البلاغة	٢٥٥٤
٧	الأصول	٣٤٩٤	١٧	النحو	٤٥٣١
٨	الفقه العام	٩٦٤	١٨	الصرف	٩٨١
٩	فقه حنفي	٦٩٤٨	١٩	الآداب والفضائل	١٨٢٩
١٠	فقه شافعي	٤٨٧٩	٢٠	الأدب	٥٩٨٤

رقم	الفن	المعد	رقم	الفن	المعد
٢١	اللغة	١١٨٢	٤٠	إملاء وخط	١٠٠
٢٢	التصوف	١٨٨١	٤١	صور ورسوم	١٣٤
٢٣	التاريخ	٥٠٨٦	٤٢	كيمياء وطبعية	١٢٢
٢٤	المنطق	١٤٩٩	٤٣	التجارة	١٩
٢٥	فنون متنوعة	٣١٢٢	٤٤	الهندسة	٦٧
٢٦	الادعية والاوراد	١١٢٧	٤٥	الجبر	٣٤
٢٧	الحكمة والفلسفة	٤٦٦	٤٦	الزراعة	٦٦
٢٨	الفلك	٤٢٨	٤٧	فقه الشيعة	٢٧
٢٩	تقويم البلدان	٣٠٣	٤٨	حكمة تشريع	٢٥
٣٠	القوانين واللوائح	٦٤١	٤٩	اقتصاد سياسى	٦٧
٣١	الحساب	٥٠٥	٥٠	هيئة	٢٠
٣٢	الطب	٦٣٢	٥١	فراصة وكف	١٧
٣٣	الميراث	٦٣٣	٥٢	تعبير الرؤيا	٥٤
٣٤	أخلاق وزربية وأجتماع	٦٤٦	٥٣	شرائع غير إسلامية	٤٢
٣٥	أدب البحث	٢٣٧	٥٤	طبوغرافيا	٣
٣٦	المروض	٢٥١	٥٥	مخطوطات	٦٣٩٥
٣٧	الوضع	١٤١	٥٦	الموسيقى	٧
٣٨	اللغات الأجنبية	٢٧٢	٥٧	مسك دفتر	٣
٣٩	اللغات التركية	٢٣٠	٥٨	حرف ورمل	٥٠

ويلاحظ أن الفنون في وضع المكتبة الأولى كانت غير مميزة تمام التمييز وأخذت تتميز شيئاً فشيئاً ولا زالت في حاجة إلى شيء من ذلك ولعل العذر في هذا أن كتب بعض الفنون كانت من القليلة بحيث لا نستدعى أفرادها بعنوان ولا بتسجيل ولا بفهرس ثم استوجبت ذلك بعد أن تكاثرت عددها كما كانت خبرة القائمين على المكتبة في جملتهم محدودة .

٦ - النواذر في المكتبة الأزهرية

بالمكتبة الأزهرية نواذر كثيرة في كثير من الفنون قل أن تتيسر لمكتبة أخرى ، وسبب ذلك فيما نلظ أنها هي التي ورثت خلاصة الثقافة الإسلامية في الشرق ممثلة في مؤلفات

علماء الجامع الأزهر وعلماء العرب بوجه عام فقد كان الأزهر قبلة هؤلاء جميعا لألف عام مضت ومصدر الثقافة الإسلامية في الشرق .

ورغم الألفارات المتكررة على مكتبات الأروقة التي تكونت منها المكتبة الأزهرية فقد احتفظت منها ببعض النواذر وظفرت ببعضها من طريق الاهداء ونكتنى بذكر قليل منها في بعض الفنون .

المصاحف

قطعتان من مصحف مخطوحتان سنة ٤٦٥ هـ
مصحف مخطوط سنة ٥٢٨ هـ . جزء من أربعة مخطوط سنة ٦٩٧ هـ
مصحف مخطوط سنة ٧٤١ هـ . مجلد به ربع القرآن مخطوط ٧٧١ هـ
أما مخطوطات القرن التاسع وما بعده من المصاحف فهي كثيرة جدا .

القراءات

الرواية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة كتب سنة ٥٥٧ هـ
اللاآلى الفريدة في شرح القصيدة (الشاطبية) سنة ٧٠٦ هـ
شرح الشاطبية للجبري سنة ٧٣٩ هـ . الاطاعة على اختلاف القراء في القراءات السبع
سنة ٧٧٤ هـ . شرح برهان الدين الأنصاري على الجزرية سنة ٨٤٢ هـ . طيبة النشر لابن
الجزري عليها خطه سنة ٨٤٧ هـ . التيسير للداني سنة ٨٧٥ هـ .

التفسير

تفسير غريب القرآن للسجستاني كتب سنة ٥١٤ هـ تفسير سورة الفاتحة لعبد الله بن
عبد الرحمن بن جزى الأندلسي سنة ٦٢٧ هـ . الكشف للزمخشري سنة ٦٥٤ هـ من نسخة المؤلف
التعريف والأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام لعبد الرحمن بن عبد الله السبيلي
المتوفى سنة ٥٨١ هـ كتب ٧٤٣ هـ . الجزء الثالث من كشف الحقائق وشرح الدقائق لأحمد
ابن يوسف بن رافع الشيباني السكواشي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ كتب سنة ٧٧٩ هـ . الجزء الأول
من القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز لأبي العباس يوسف الحلبي الشهير بالسمين بخط
المؤلف المتوفى سنة ٧٥٦ هـ . الفيض العميم في معاني القرآن العظيم للشيخ أحمد عبد المنعم
الدمهوري بخط المؤلف سنة ١١٦٨ هـ .

الحديث

غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٣١١ هـ . مسند أبي عوانة يعقوب
ابن اسحاق ابن ابراهيم النيسابوري الموجود منه الجزء الرابع كتب سنة ٦١٧ هـ وعليه خطوط

لكثير من العلماء منهم العلامة المقدسى والعلامة الكرماني . الجزء الأول من الالمام في أحاديث الأحكام لأبي الفتح محمد بن علي بن وهب المنفلوطي المشهور بابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ . كتب سنة ٧٣٩ هـ . تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف لأبي الحجاج يوسف بن زكي الدين الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ . كتب سنة ٧٢٥ هـ . مسند البزار أحمد بن محمد بن عبد الخالق البصري المتوفى سنة ٢٩٢ هـ . كتب سنة ٩٠٥ هـ . شرح السمائل الترمذية لمحمد الشهير بملاحني من علماء القرن العاشر كتب سنة ٩٥٠ هـ . التوشيح على الجامع الصحيح للبخاري لجلال الدين السيوطي كتب سنة ٩٦٠ هـ .

فقه أبي حنيفة

عمدة الطالبين لعبد الباسط الشهير بابن الوزير خط المؤلف سنة ٦٠٣ هـ الاختيار لتعليل المختار كتب سنة ٦٩٣ هـ . جامع الصدر الشهيد كتب سنة ٧٤٥ هـ . زاد الملوك الظفري لشيخ الاسلام بن ظفر جملة مؤلفه هدية للسلطان محمد بن قلاوون كتب سنة ٨٦٠ هـ . تفصيل عقد الفرائد لابن الشحنة بخط المؤلف سنة ٨٩٥ هـ . أنفع الوسائل كتب سنة ٩٧١ هـ . شرح عبد العليم البرجندي على مختصر الوطية المسمى بالنقاية كتب سنة ٩٩٠ هـ . فتاوى ابن الشلبي احمد بن بونس من علماء القرن العاشر كتب سنة ١٠١٣ هـ . كفاية السائل لأنفع الوسائل لمحمد بن محمد الزهيري الحنفي كتب سنة ١٠٦٦ هـ حاشية الحموي على شرح الاشباه والنظائر بخط المؤلف سنة ١٠٩٧ هـ . طوالع الأنوار شرح الشيخ محمد بن احمد الأنصاري السندي الحنفي على الدر المختار في ١٦ جزء فرغ من تأليفه سنة ١٢٥١ هـ .

التاريخ

رسوم دار الخلافة لأبي الحسين بن الحسن الصابي كتب سنة ٤٥٥ هـ معجم ما استمعتم للسكري في تقويم البلدان كتب سنة ٥٩٦ هـ . سيرة السلف الصالحين والأئمة المهتدين لأبي القاسم اسماعيل بن حجر الأصفهاني كتب سنة ٧٣٢ هـ . التجميع المؤسس للمعجم المفهرس لشهاب الدين احمد بن علي الشهير بابن حجر العسقلاني بخط المؤلف سنة ٨٢٩ هـ . إنباء الغمر بانباء العمر للعافظ بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ . كتب سنة ٨٧٩ هـ . مسودة حسن المحاضرة للسيوطي بخطه .

التماريخ في علم التاريخ لجلال الدين السيوطي كتب سنة ٩٨٥ هـ . اقتطاف شقائق النعمان من رياض الوافي بوقيات الأعيان كتب سنة ٩٩٠ هـ . بخط المؤلف . النزاع والنخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم للمعريزي كتب سنة ١٠٠٨ هـ . تاريخ مدينة دمشق للعافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ . الموجود منه أربعة وعشرون جزءا بخطوط مختلفة ونكتفي في بيان النوادر بهذا القدر من الفنون والكتب . « يتبع »

الحافظ والبيان العربي

— ٢ —

١ - ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » وأهداه الى صديقه محمد بن عبد الملك الويات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه الى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان الى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى أنه حمل الى الأندلس فيما حمل اليها من نفائس المؤلفات .

٢ - وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن يذال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتابه الذكر والدبوع ، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدرجه الجاحظ نشاط القارئ وإعجابه كما يقول الجاحظ في تمليله له والجاحظ حين يملل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكروا في كتابه ترتيباً ينمى مع التاريخ بمعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء ، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله - أو كثيراً منها - محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبق عليها أحياناً روحاً نواثم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى اليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفي بوعده المسئول ، وهذا الأسلوب الاستطرادى أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارئ بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصولاً بباب البيان وأخرى بسمها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد الى آخر هذه الألقاب التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضمها إلا للتغريب بالقارئ واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته .

٣ - وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده ، والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عني فيه الجاحظ بتدوين المثل السائرة من الأدب العربي : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

يبدأ الجاحظ كتابه بمقدمة يذكر فيها البيان وشرفه ويلم فيها بالكثير من عيوبه القطرية وسواها في استطراد جميل . ثم يشرح البيان ويحلل عناصره ، ويذكر البلاغة ومذاهب رجال البيان فيها ، ويبين الصلة بين البليغ ومظهره ، ذا كراً بلاغة الخطيب وعناصرها وأدواتها ، ملماً بالكثير من الخطباء ، داعياً إلى قوة الطبع وشرف المعنى وجمال اللفظ وإلى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، مبيناً أثر هذه البلاغة في النفس والوجدان ، ويشكلم على الحديث المردد ومن عابه ومن مدحه ، وعلى الصمت : من أشاد به ومن ذمه داعياً البليغ إلى أن لا يتمسك بحكمة الصمت حتى لا يورثه ذلك العي والحصر ، ويدعو الأدباء الناشئين إلى أن يرضوا إنتاجهم الأدبي على أولى الذوق والبيان حتى يعرفوا قدر أنفسهم ومزلتها في البيان ، كما يتحدث عن السجع : مطبوعه ومنكفه وعن منزلته الأدبية ، محللاً عناصر الشعر نافية أن يكون ما في القرآن من كلمات موزونة شعراً ، ملماً بطبقات الشعراء وألفاهيم ، وينمى على المتقمرين المتوحشين ، ويسرد أحاديث النوكرى والحقى سرداً بليغاً ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الكتاب الذى أودع فيه الجاحظ جمل ما أورده من بلاغة البيان وعناصرها وألوانها ومذاهبها وأسبابها .

أما الجزء الثانى فتحدث فيه عن الخطابة وأقسامها وأثرها ، وألم فيه بسحر بلاغة رسول الله فى أحاديثه وخطبه ، وبخطب كثير من جلة الصحابة والسلف الأولين ، وتكلم على الحوليات وطبقات الشعراء ومذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة ، كما تكلم على اللحن واللعانين والنوكرى والحقى والمجانين .

وفى الجزء الثالث يرد على الشعوبية مطاعنها التى قدحت بها فى العرب لاسباب ما نموه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام ، ورد الجاحظ على الشعوبية فيه كثير من حرارة الايمان التى أزكت فى دفاعه روح الجليل وقوة المناقشة وسعة التفكير وينقل الجاحظ كثيراً من حكم النساك ومواعظهم ، وخطب الخوارج وكلماتهم ، وسياسة بنى العباس ودهائهم ، ويتحدث عن رواية الأدب وانجهايات الرواة وطبقاتهم ، وعن كلام رسول الله وسحر إيجازه وبمده عن مذاهب العرب فى شعرها ، وعن أمية رسول الله مع بلاغته ، وعن مجد الشعر وأثره ومكانته إلى غير ذلك من شتى الآراء ، ويختم الجاحظ كتابه بهذه الكلمة الجامعة : « وهذا أبقاك الله آخر ما ألفناه من كتاب البيان والتبيين ، وزجر أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنمته ، وأردناه من تأليفه ، فإن وقع على الحال التى أردنا والمنزلة التى أملنا فذلك بتوفيق الله ، وإن وقع بخلافها فما قصرنا فى الاجتهاد ولكن حررنا التوفيق والله أعلم » .

وبعد فكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المستكهلة التى أحاطت بالجاحظ بمد أن ودع

شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير .
٤ - وأثر « البيان » وقيمه مما يمسر على الباحث تفصيله وإيفاؤه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم :

(أ) فكتاب البيان أصل من أصول الأدب وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمنحصرين في آدابها .

(ب) وقيمه في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وقاياتها وأثرها سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصي واتجاهه الأدبي المستقل ، وفيما جمعة الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ ، فيه من بينها البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما يتحدث عنها بشر بن المعتمر في صحيفة من تحبيره وتنميقه الى غير ذلك من شتى الروايات المدونة وغيرها من شتى الآراء التي كتبها الجاحظ مستقلاً بالتفكير فيها .

(ج) وإذا كان للجاحظ نثر التلمذة والرواية - في كتابه - عن شيوخ العربية وأدبائها كالاصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن سلام وأبي العاصي ، وكأبراهيم بن السندي وعبد الكريم بن روح الغفاري ومحمد بن بشير الشاعر ، وكثامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » .

١ - فابن قتيبة المتوفى سنة ٣٧٦ تبع في كتابه « الشعر والشعراء » الجاحظ في مذهبه الأدبي من إشار الطبع والرونق والماء والبعث عن التكلف والاستكراه والتعقيد .

٢ - ومؤلف نقد النثر يبدو في كتابه أثر الجاحظ ، وهو وإن كان نقد « بيان » الجاحظ في أول كتابه إلا أنه قد تأثر به الى حد كبير ، فكلامه على أنواع البيان ونظره اليه نظرة واسعة أعم من البيان بالمعارة هـ - و صنيع الجاحظ في كتابه ، ويتكلم على اختيار مواقع الكلام وأوقاته ومناسبته للسامعين ومطابقة الكلام للمقام (٩٦ نقد النثر) وتلك آراء دونها الجاحظ في بيانه ، ويرى مؤلف نقد النثر أن الفسكاهة يجب ألا تغير وأن الجزالة تقويها معاشرة الأدباء والنصحاء ، وأن اللحن يستحسن من الجوارى وأن من الصواب معرفة أوقات الكلام وال سكوت وأقذار الالفاظ والمعاني بأن يلبس المعنى ما يليق به من اللفظ ، كما يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتساوى فيها المعنى واللفظ فلا يكون اللفظ الى القلب أسبق من المعنى ولا المعنى أسبق من اللفظ ، وتلك كلها آراء الجاحظ الى غير ذلك من كثير من مظاهر التأثير والاحتذاء .

٣ — وكذلك دعا الآمدي الى المذهب الادبي الذي دعا اليه الجاحظ في كتابه البيان والذي سنفصله بعد قليل .

٤ — ودعوة أبي الحسن الجرجاني في وساطته الى ترك التكلف والاسترسال مع الطبع (٣٠ وساطة) ، والى تقسيم الالفاظ على رتب المعاني هي دعوة الجاحظ في بيانه ، وإن كانت مظاهر التأثير بالجاحظ تبدو معدومة في الوساطة .

٥ — وأبو هلال العسكري في « الصناعتين » متأثر بالجاحظ وكثير الافادة منه ومن كتابه « البيان » « والصناعتين » سير في السبيل الذي عبده الجاحظ وإتمام لما بدأ به ، وكثير من آراء الجاحظ نجدناها في الصناعتين وإن كان للصناعتين ميزة شرحها والتعليق عليها ، وقد ينقلها نفسها ، وقد يستدل بها ، وينقل وصية بشر بن المعتز ويشرحها ؛ وعلى العموم فالجاحظ هو المرجع الاول لأبي هلال .

٦ — وكذلك ابن سنان الخفاجي ينقل في كتابه « سر الفصاحة » عن الجاحظ كثيرا

٧ — وعبد القاهر الجرجاني شديد التأثير بالجاحظ وكتابه « الحيوان » و « البيان » يأخذ عنه كثيرا من آرائه بدون ذكر الجاحظ ، وقليل ما يشير إليه ؛ فكلام عبد القاهر عن البيان ينجل فيه روح الجاحظ ورأيه في أن فضيلة الكلام لنظمه لا لفظه ولا لمعناه (أسرار ومواضع كثيرة من الدلائل) هو روح كلام الجاحظ ، وعبد القاهر ورأيه في السجع متأثر بالجاحظ ، وبلاغة الالفاظ من أن تكون مألوقة ليست وحشية ولا سوقية دعا إليها الجاحظ قبل عبد القاهر ، وتعريف عبد القاهر للبلاغة هو روح الجاحظ في بيانه وإثارة من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك مما سبقه إليه الجاحظ وينقل عبد القاهر عن الجاحظ كثيرا الى غير ذلك من مظاهر التأثير الكثير .

(د) ولكتاب البيان كذلك أثره في النقد الادبي فهو سجل حافل للآراء المختلفة في النقد مما لا تزال الى الآن موضع البحث والاعجاب .

والجاحظ الذي نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها مذاهب المطبوعين كان يضع بذلك أساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الادبي .

وعصرنا الحديث يؤمن كل الايمان برأى الجاحظ ويسير في تياره الفكري والادبي كما يسير على ضوئه في البيان العربي وبلاغته

« يتبع »

محمد عبد المنعم خفاجي

السيرة محمد اقبال كما عرفته

تحت هذا العنوان سأكتب عددا من المقالات عن عظيم من عظماء المسلمين ، وقف حياته لخدمة الجماعة الإسلامية في الهند خاصة والعالم عامة . ذلك هو العلامة الشيخ السير محمد اقبال . وهو غنى عن التعريف بمجوده الجبارة في إصلاح شئون المسلمين ، وكتاباته الفلسفية الإصلاحية التي عرفها الغرب والشرق معاً ، والتي سنذكر بعضها منها ، ونقتبس من بعضها الآخر في مقالاتنا الآتية .

وينتمى المرحوم السير محمد اقبال في الأصل إلى أسرة هندوسية غير مسلحة من أمرات العلماء - بندت (١) - في كشمير . وكشمير هي تلك المقاطعة الهندية الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الهند ، والتي تحاط من الغرب والشمال والشرق بأفغانستان ، وبلاد التركستان الروسية والصينية . وهي تلك المقاطعة التي اشتهرت في العالم بجمال جوها الصمعي المعنل ، وبكثرة بحيراتها الرائعة الساحرة ، وبوفرة حدائقها الغناء المتنوعة ، التي ترجع في تكوينها وغرمها وتسيقها إلى عهد امبراطور المغول العظيم المسلم جهانكير (٢) الذي حكم من سنة ٧٨٥ إلى سنة ٨٢٨ هـ .

وقد كان لهذا الامبراطور المسلم الفضل في تجميل مقاطعة كشمير - كغيرها من مقاطعات الهند - بأنواع الأشجار المثمرة ، والنباتات المزهرة ، والأزهار الفيحاء ، وتربيتها والعناية بها عناية علمية . ولا تزال آثار هذه العناية التاريخية بالحدائق والأزهار ظاهرة في مدن آكره ودلهي ولاهور من مدن الهند ، وعلى جانبي وادي كشمير (٣) .

ومن بين الحدائق التي اختطها وعنى بها الامبراطور جهانكير ثنتان حازتا شهرة فائقة هما نشاط باغ (أي حديقة المرور) وشاليجار باغ (أي حديقة المتعة والسعادة) (٤) .

وكذلك اشتهر سكان كشمير - رجالا ونساء - بتناسق أجسامهم ونظافة ملامحهم وجمالهم الفائق .

(١) كلمة بندت (Pundit) في لغة الهندية والسنسكريتية معناها عالم (٢) كان هذا الامبراطور ابناً للامبراطور « أكبر » امبراطور الهند المسلم الذي حكم من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٨٥ هـ وقد استمر حكمه براطرة المغول الهند ثلاثة قرون . (٣) ورث الامبراطور جهانكير حبه للحدائق وعنايته بها من جده الامبراطور باهر المغول أول امبراطور مسلم بالهند . (٤) تشبه هاتان الحديقتان الحدائق المشهورة في المواسم الأوروبية مثل حديقة لكسمبورج Le jardin de Luxumbourg في باريس ، وحديقة هايديبارك Hyde Par في لندن .

بدأ محمد إقبال تلمذته في بلدة سيالكوت في مقاطعة البنجاب على حدود كشمير ، ثم أرسل به والده الى لاهور — كما سنشير الى ذلك بعد — لتلقى دراسته العليا . ومن هناك سافر الى إنجلترا حيث درس القانون ، ونال لقب محام قانوني في نصف المدة المقررة للدراسة ، وكان الأول بين زملائه . ثم درس الفلسفة في جامعة هايدلبرج بألمانيا ، ونال فيها درجة الدكتوراه . وأسرة المترجم له شهيرة في كشمير بأنها بيت علم وفضل ، وأن العلم والشعر وراثيان في أفرادها . وقد توارثت منذ القدم وظيفة وكالة الوزارة لبراطرة الهند المغول . ومن بين أفراد هذه الأسرة الاعلام المعاصرين لنا الآن رئيس حزب الاحرار في الهند السير تيج بهادر سبرو ، وصديقي وزميلى العزيز في التلمذة البندت جواهر لال نهرو الذى يلى المهاتما غاندى في المكانة عند سكان الهند .

وقد كان إقبال في صغره تلميذا كسلا ، صعب المراس ؛ فبعث به والده الى لاهور ليتلقى الدراسة العليا كما ذكرنا . وهناك في لاهور — عاصمة البنجاب — انقلب إقبال هذا الكسلان الى شاب ناثر النفس بمعنى الكلمة ، وأطلق لنفسه العنان في إرضاء شهواته . واستمر في حياة سماها هو على طريق الدعابة حياة « البطالة الثقافية » .

وسمى كيف انقلب هذا الكسل ، وهذه الثورة النفسية ، وهذه البطالة الثقافية ، انقلب كل هذا الى شخصية أخرى عظيمة تشع وتنير وتعمل وتصلح وتوقظ نفوس المسلمين من أبناء الهند .

أخذ إقبال منذ صباه في قراءة الشعر الفارسي ، وبخاصة كتب التصوف وفي مقدمتها كتب جلال الدين الرومي صاحب « مثنوى » ، وأولع بهذه الكتب وأغرم بها إغراما حتى اعتنق الاسلام ، فانفصل بذلك عن أهله وأسرته وقطعوا صلته به . وما زال هو في دينه الجديد ومطالعاته الصوفية حتى صار من كبار الفلاسفة المتصوفين .

لمح مولانا المرحوم محمد علي الزعيم الهندي المسلم — المدفون الآن في المسجد الأقصى بيت المقدس — كما لمح صديقه كاتب هذه السطور ، في سلوك المترجم له ، ونشاطه ، وآرائه وحمته الوثابة ، معانى أخرى غير تلك المظاهر الخارجية التى تبدو منه . وأيقنا أنه سيكون لهذا الشاب الناثر مستقبل عظيم ، وأنه سيكون نجما لامعا في جوار المسلمين المظلم بالهند . وقد حققت الحوادث بعد ذلك صدق هذا التكهن .

اقترح مولانا محمد علي وكاتب هذه السطور على إقبال — قبل ذهابه الى أوروبا لإتمام دراسته — أن يدرس مهنة حرة حتى لا تمنعه قيود الوظيفة الحكومية من أن يفيد المسلمين بعلمه وآرائه الاصلاحية . وقد كان هذا فدرس كما ذكرنا القانون والفلسفة .

ولما رجع الى الهند رجاه مولانا المرحوم محمد علي وكاتب هذه السطور أن ينشر شيئاً من كتاباته ليوقظ بها المسلمين من رقادهم ، فقبل ، ولكن بدلا من أن يوجه كلمته الى المسلمين - كما رجاه أصدقاؤه - توجه بالكلمة الى الله تعالى في قصيدته الطويلة التي سماها « شكوى » الى الله تعالى .

وقد نمت في هذه القصيدة حال المسلمين وركدوم ، وما هم فيه من تأخر ، وفقدان ماضيهم المجيد . ولا يمكننا أن نصف هنا هذه القصيدة ، ولكن يكفي أن نقول إن أثرها قد دوى في نفوس المسلمين كالرعد ، فإن المحافظين منهم - وهم المتمسكون بالقشور من الدين دون اللب - والمدعين النور والتطور - وهم الدهرية الذين يتشددون بالعلوم الحديثة - هؤلاء وهؤلاء صدمتهم هذه القصيدة التي كشفت عن عيوبهم ، ونهتهم الى أخطاء كلا النوعين من المسلمين . وقد عقد المسلمون من بين هاتين الطائفتين في الهند وما جاورها من الأمم - اجتماعات لبحثوا - في دهش « شكوى » إقبال ، وليبعضوا باحتجاجاتهم على ما كشف من عيوبهم . وقد كان انتقادهم له مرا ، وسبهم له شنيعا ، واتهامهم إياه منكرا ، بالرغم من نواياه الإصلاحية وروحه الطيبة .

ولم يؤثر كل هذا في نفس المصلح الناثر ، بل ظل هادئا ساكنا . ولكنه شعر بالنصر حينما رأى أثر قصيدته « شكوى » في المسلمين ، ورأى أنها أيقظتهم ، ونهتهم الى أخطائهم ، ودفعتهم الى التفكير في أحوالهم .

ولما هدأت ثورة المسلمين النفسية رجاه صديقه المذكور أن يتصافى مع المسلمين الساخطين الغاضبين . فقبل محمد إقبال رجاهما ، وكتب قصيدته المشهورة « جواب الشكوى » وهي رد على قصيدته الأولى .

وضع السيرة إقبال هذه القصيدة في صيغة وأسلوب كأنما نزلت من الملا الأعلى ، تعنيفا للمسلمين ولوما وعقبا ، وتأكيذا لما ورد في القصيدة الأولى . فكانت في أسلوبها اللاذع ، ولومها الزاجر أشد على نفوسهم مما كانوا ينوقمون لو أنها كانت من عند الله تعالى (١) .

في مصر التاريخية

الأزهر مهد العلماء المسلمين

نحت هذا العنوان نشرت صحيفة The stars and stripes الأمريكية الصادرة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٤٣ كلمة للدكتور محمد ولي خان ، وهو صاحب المقال المتقدم ، نشره لما حواه من الحقائق التاريخية ، وقد تفضل فأرسل إلينا هذه الأسطر مترجمة فنضاعف له الشكر . قال :

(١) سنترجم بعض أجزاء من هذه القصيدة أيضا في مقال قادم .

ولما رجع الى الهند رجاه مولانا المرحوم محمد علي وكاتب هذه السطور أن ينشر شيئاً من كتاباته ليوقظ بها المسلمين من رقادهم ، فقبل ، ولكن بدلا من أن يوجه كلمته الى المسلمين - كما رجاه أصدقاؤه - توجه بالكلمة الى الله تعالى في قصيدته الطويلة التي سماها « شكوى » الى الله تعالى .

وقد نمت في هذه القصيدة حال المسلمين وركدوم ، وما هم فيه من تأخر ، وفقدان ماضيهم المجيد . ولا يمكننا أن نصف هنا هذه القصيدة ، ولكن يكفي أن نقول إن أثرها قد دوى في نفوس المسلمين كالرعد ، فإن المحافظين منهم - وهم المتمسكون بالقشور من الدين دون اللب - والمدعين النور والتطور - وهم الدهرية الذين يتشددون بالعلوم الحديثة - هؤلاء وهؤلاء صدمتهم هذه القصيدة التي كشفت عن عيوبهم ، ونهتهم الى أخطاء كلا النوعين من المسلمين . وقد عقد المسلمون من بين هاتين الطائفتين في الهند وما جاورها من الأمم - اجتماعات لبحثوا - في دهش « شكوى » إقبال ، وليبعضوا باحتجاجاتهم على ما كشف من عيوبهم . وقد كان انتقادهم له مرا ، وسبهم له شنيعا ، واتهامهم إياه منكرا ، بالرغم من نواياه الإصلاحية وروحه الطيبة .

ولم يؤثر كل هذا في نفس المصلح الناثر ، بل ظل هادئا ساكنا . ولكنه شعر بالنصر حينما رأى أثر قصيدته « شكوى » في المسلمين ، ورأى أنها أيقظتهم ، ونهتهم الى أخطائهم ، ودفعتهم الى التفكير في أحوالهم .

ولما هدأت ثورة المسلمين النفسية رجاه صديقه المذكور أن يتصافى مع المسلمين الساخطين الغاضبين . فقبل محمد إقبال رجاهما ، وكتب قصيدته المشهورة « جواب الشكوى » وهي رد على قصيدته الأولى .

وضع السيرة إقبال هذه القصيدة في صيغة وأسلوب كأنما نزلت من الملا الأعلى ، تعنيفا للمسلمين ولوما وعقبا ، وتأكيذا لما ورد في القصيدة الأولى . فكانت في أسلوبها اللاذع ، ولومها الزاجر أشد على نفوسهم مما كانوا ينوقمون لو أنها كانت من عند الله تعالى (١) .

في مصر التاريخية

الأزهر مهد العلماء المسلمين

نحت هذا العنوان نشرت صحيفة The stars and stripes الأمريكية الصادرة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٤٣ كلمة للدكتور محمد ولي خان ، وهو صاحب المقال المتقدم ، نشره لما حواه من الحقائق التاريخية ، وقد تفضل فأرسل إلينا هذه الأسطر مترجمة فنضاعف له الشكر . قال :

(١) سنترجم بعض أجزاء من هذه القصيدة أيضا في مقال قادم .

قليل من القراء يعرف أن العصور المظلمة كانت مظلمة في أوروبا فقط . فبينما كان الغرب فارقا في بحار من الظلام العلمي كانت مصر ، وبقية العالم الاسلامي ، تنعم بعصر من حياة العلوم والمعارف ؛ هذا العصر الذي جاء عقب نهوض العرب السياسي والديني . وقد انتشرت معاهد العلم والجامعات في كل البلاد الاسلامية من بغداد الى شمال إفريقيا فصقلية فأسبانيا . وأهم هذه المعاهد الجامع الأزهر بالقاهرة ؛ هذا الجامع الذي لعب دورا مزدوجا في الاحتفاظ بالثقافة العالمية ؛ ثقافة الإغريق التي احتوتها مكتبات الاسكندرية وهليوبوليس ، والثقافة الاسلامية التي وجدت فيه نبراسا للإشعاع شرقا وغربا . ولقد كان للجامع الأزهر وزملائه من معاهد العلم في أسبانيا وصقلية أثر عظيم على النهضة العلمية والأدبية في أوروبا ، وبالرغم من أن الأزهر قد بلغ من العمر الآن ألف سنة ، لا يزال قويا نشيطا .

ويوم أن أسس في القاهرة لم يكن هناك وجود لجامعة أكسفورد أو كبريدج . وحين أخذت هانان الجامعتان أول صورة من وجودهما في القرن الثاني عشر الميلادي ، وظهرتا أشبه ببيع الرهبان يجتمع فيها شرادم الطلبة للتعلم ، كان الأزهر قد ازدهر وشب كمعهد عظيم من معاهد الثقافة الدينية والدنيوية . نعم كان للأزهر طابعه الديني الأصلي ، ولكن تربى في أحضانه وعاش بين جدرانه علماء نوابغ في كل فرع من فروع العلوم والفنون ، هؤلاء العلماء الذين كانوا دائما قادة الثقافة في مصر والعالم الاسلامي .

ولقد كان التعليم في الأزهر دائما - ولا يزال - بالهجان . وفتحت أبواب العلم فيه للمسلمين من جميع الأجناس والطوائف . ولم يتمتع طلبته بمجانبة التعليم فقط ، بل كانت لهم مجانية السكن والطعام . ولم يعرف التاريخ قبل الأزهر ممهدا آخر حقق فكرة إسكان الطلبة وإيوائهم وإطعامهم . وها هي ذى أروقتهم لا تزال قائمة حول بنائهم . وفي هذه الأروقة تتجلى روح الأخوة والاشتراكية الصحيحة التي نشرها الاسلام بين أهله . وفي هذه الأروقة يرى الزائر طلبة من الصين والهند والأفغان والتركمان والترك وفلسطين وبلاد المغرب وبلاد المغرب . كل هؤلاء يربطهم شعار واحد .

ولا يتقيد الأزهر بالسن في قبول طلبته (١) ، فليس لطلب العلم سن خاصة في رحابه . ولذلك لا غرابة أن نرى بين طلبته من اشتغل رأسه شيئا ، ومن العسير أن يميز الأجنبي بين الطالب منهم والأستاذ ؟

محمد ولي فانه

دكتور في الفلسفة من جامعة أكسفورد

(١) « مجلة الأزهر » عدم التقيد بالسن خاص بالقسم العام من الأزهر ولكن القبول بكلياته ومعاهده له سن خاصة .

الشيعة

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ؛ كمثل البهيمة تُنتَجج البهيمة ، هل ترى فيها جدهاء ؟ » رواه الشيخان .

ليس بدعا من الأمر أن نتصرف في اختيار الأحاديث ، تبعاً لتصرفه صلوات الله وسلامه عليه ، في ضروب العلم والحكمة ، وفنون التزكية والهداية ؛ فقد آتاه الله الكتاب ومثله معه ، وجمع له فيهما من علوم الأولين والآخرين ما يكفل بعضه السعادة العليا للناس أجمعين « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً »

المفردات

الفطرة : أصل الفطر الشق ، ثم أطلق على الابتداء والاختراع ؛ والفطرة هيئة الخلق وحاله . والمراد بها في الحديث ما فطر الله عليه الخلق من معرفته والاقرار به .
(يهودانه ؛ أو ينصرانه ، أو يمجسانه) أى يمجسلونه يهودياً ، أو نصرانياً ، أو مجوسياً ، بالتعليم والتلقين .

واليهود من هاد الرجل إذا رجع وتاب ، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام « إنا هدنا اليك » ، والنصارى أمة المسيح بن مريم عليه السلام ؛ «معموا بذلك لأنهم نصرروه أو نصر بعضهم بعضاً . وقال الجوهرى أخذت هذه التسمية من قرية « ناصرة » التى أقام بها عيسى عليه السلام . والمجوس قوم يعبدون الشمس والقمر والنار ، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر ، وآخرون على وصفهم بعبادة النار ، وهم طوائف ، يثبتون أصليين اثنين مدبرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ؛ يسمون أحدهما النور ، والآخر الظلمة .

(البهيمة) هى كل ذات أربع قوائم ولو فى الماء ؛ أو كل حى لا يميز .
(تُنتَجَج) يقال تُنتَجَج الناقة فهى منتوجة وأنتجت فهى منتجة ، إذا وضعت .
(جدعاء) جدع الأنف قطعه ؛ وكذا الأذن ، واليد ، والشفة ؛ وتجديع البعير قطع فمه أجدهع وجدعت الناقة فهى جدعاء .

ملاحظة : أخرنا هذا الموضوع عن موضعه لأن أصوله تأخرت عن دعوته وصولاً .

المعنى

فطر الله الناس جميعا على معرفته وتوحيده ودينه الحق ، وأعدتهم لقبوله فما يولد مولود إلا وهو مستعد لهذا الدين الحنيف حتى لو ترك وشأنه ؛ لما ابتغى غير الاسلام ديناً . ذلك بأنه مجاوب للعقل السليم ، مساوق للنظر المستقيم ، مشا كل للطبائع النقية والنفوس الزكية التي كُتب لها أن ترقى في مراقى الكمال ، ويصدق هذا قول الله جل ثناؤه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وجلى أن ليس المراد بولادة الطفل على الفطرة أنه حين يخرج من بطن أمه يعلم هذا الدين الحق ، وإنما المراد أن كل مولود فإنه يولد على محبته لفطرته وإقراره له بالربوبية حتى إذا خلى ونفسه لم يعدل عن الاسلام الى غيره ؛ وذلك كما يولد على محبته لما يلائمه من الاغذية والاشربة وعلى اهتدائه الى ما ينفعه ودفع ما يضره .

ولا يزال الطفل نزاهة الى الخير ، سائراً في طريق الهدى حتى يصل الى الكمال المقدر له ، ما لم تصبه القوارع ، وتصرفه عن الحق الصوارف ؛ من ولى بضله ، أو بيته تفسده ، أو شيطان من شياطين الانس والجن يستهويه فيها .

وإنما اقتصر صلى الله عليه وسلم على الآيتين في إحلال الفطر وإفساد فطرته ، بالتهويد والتنجيس — لأنهما أسبق الناس الى رعايته والقيام عليه .

ومن روائع التشبيه أن يمثل النبي صلى الله عليه وسلم الطفل المسكين وقد جنى أبواه عليه هذه الجناية النكراء — بالبهيمة يفتيحها أهلها تامة الخلق ، ثم يعمدون عليها فيجدها عوناً ويغيرون خلقها .

ولا يعزبن عن القواد أنه لا عبرة بهذا الايمان الفطرى في أحكام الشريعة القراء ، وإنما العبرة بالايمان الشرعى المسكوب بالنظر والاختيار ؛ ولهذا توارث الكفار وأبناؤهم الذين لم يبالغوا الحلم ؛ لأنهم — وإن أسلموا إسلاماً فطرياً — لم يسلموا إسلاماً شرعياً يمتد به .

ولقوة هذا الدين ومثاقته لا تزال تلحس لسلطانته على النفوس — وإن تبدلت — أثرها ظاهراً ؛ ولعل هذا هو السر في إسلام كثير من الأجانب عنه ، رجوعاً الى فطرتهم الاولى ، على حين لا يرتد سخطة لدينه من خالطت بشاشة الاسلام قلبه .

وبعد فهل العموم المستفاد من القضية السككية مراد في الحديث ؟ وبمباراة أوضح ، أولئك آدم كلهم هيئوا للإسلام وأعدوا له ؛ لم يشذ منهم أحد ، أم أن فيهم من ولد غير قابل له ؟ سؤال مهم ، لا ينبغي أن نجاوز هذا المكان قبل أن نحجب عنه .

لقد ذهب الى الرأي الاول أكثر العلماء ؛ ولكن الذى يطمئن له القلب ، ويشهد به الحس ، وتمضده دلائل النقل والعقل - هو الرأي الثانى وأن من بنى آدم من ولد مطبوعا على الكفر ، نائيا عن الحق غير مهيا له ، ولكنه شاذ نادر لا يضر عموم الحكم فى شيء - على أن صيغة « كل » تستعمل أحيانا بمعنى الكثير الغالب . وبهذا التأويل اليسير نجيب عن مثل غلام الخضر الذى جاء فى مسلم (١) أنه طبع على الكفر ، ولو ما شق لأرهق أبويه طغيانا وكفرا وبهذا التأويل نقضى على شبهات فائرة ، وهواجس مترددة حائرة . وسبعان من لا يسأل عما يفعل ؛ ومن لو شاء لآتى كل نفس هداها .

لطائف وأسرار

أجلنا القول فى المراد بالفطرة ثم أحببنا أن تفصله هنا بعض التفصيل ؛ إذ أن الفطرة هي أساس البحث فى علوم النفس والتربية ، والأخلاق والاجتماع .

اختلف العلماء فى تحديد المراد بالفطرة . وأشهر الأقوال وأصحها وهو الذى اعتمدا عليه فى معنى الحديث ، أن المراد بها الاسلام . قال ابن عبد البر : إنه المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » الاسلام ، واحتجوا بقول أبى هريرة فى بعض روايات الحديث : اقرءوا إن شئتم « فطرة الله » الآية . وقد قدمنا أن معنى ولادة الطفل على الاسلام ، استعداده له ، فإسنا إذاً بحاجة الى أن نعد هذا رأيا ثانيا .

وذهب قوم الى أن المراد بالفطرة العهد الذى أخذه الله تعالى من بنى آدم حين أنهدمهم على أنفسهم ألت ربكم ؛ قالوا بلى . والحق أن هذا - كما قال صاحب الكشف - من قبيل التخييل والتصوير ، ومعناه أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، حتى شهدت أبصارهم وبصائرهم ، وميزت بين الضلال والهدى ، والحق والباطل ، فسكانه أنهدمهم على أنفسهم وكأنهم قالوا بلى ؛ وهذا القول قريب من سابقه .

ورجح ابن عبد البر أن المراد بالفطرة الخلقة ، أى بولد سالما لا يعرف كفرا ولا إيمانا ولا معرفة ولا إنكارا ، ثم يعتقد إذا بلغ الحلم .

وقال ابن المبارك إن المراد أنه يولد على ما يصير إليه من شقاوة أو سعادة ، فسكانه أوّل الفطرة بالمسلم ، وهو مردود بأنه لو كان كذلك لم يكن لقوله : فأبواه يهودانه الخ معنى ، لأنهما فعلا به ما هو الفطرة التى ولد عليها (٢) .

(١) كتاب القدر . (٢) بقيت آراء أخرى فى « شفاء العليل » لابن القيم وفى « كتاب الجنائز » من فتح البارى - لم نجد حاجة الى ذكرها .

وإذا كان سبب الحديث مرجحاً للبراد إن لم يكن ناصفيه ، فقد روى الإمام أحمد وغيره في سبب هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأفصى بهم القتل إلى الذرية فقال لهم : ما حملكم على قتل الذرية ؟ قالوا يا رسول الله : أليسوا أولاد المشركين ؟ قال : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه . فهذا دليل على أنهم ولدوا غير كفار ثم طرأ عليهم الكفر بعد . وكما اختلف العلماء في معنى الفطرة . اختلف المربون في نزعاتها واتجاهها . فمنهم من ذهب إلى أنها خير محض ، ومنهم من ذهب إلى أنها شر محض ، ومنهم من رأى استعدادها للخير والشر جميعاً ، ومنهم من رأى خلوها منهما جميعاً .

والذي يشير إليه الحديث — وهو ما رجحناه من قبل — أن النفوس في جبلتها إلى الخير أميل ، ما لم تعرض لها الآفات وتصرفها الصوارف (٢) . ومن هنا رجح المحققون من العلماء نجاة من مات من أطفال غير المسلمين خلافاً لمن قال : هم ملحقون بأبائهم . وخلافاً لمن توقف في شأنهم وفي قوله : فأبواه يهودانه الخ دليل على قبول الفطر للتغيير والتهديب ، واستعداد النفوس للتعليم والتأديب ، خلافاً لمن قاس الخلق على الخلق ، والصورة الباطنة على الصورة الظاهرة ، وزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها البتة . وقد عقد الغزالي لتغيير الأخلاق بالرياضة فصلاً ممتعاً في كتاب رياضة النفس من الإحياء ، لم يدع فيه مقالا لقائل .

وفيه تقدير للأسباب وأنها لا تنافي قضاء الله وقدره ، وكل ميسر لما خلق له . وفي الحديث إشارة إلى وجوب العناية بأمر الأطفال منذ الولادة إلى أن يبلغوا الحلم ثم في الحديث رمز إلى يسر هذا الدين وسماحته وأن الأنبياء وورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إذ يدعون عباد الله إلى الله ، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور ؛ فإنما يعيدون الفطر سيرتها الأولى ، ويرفعون النفوس إلى محلها الأرفع .

طه محمد السالك
المدرس بالأزهر

(٢) للأستاذ الكبير محمد فريد وجدي صفحات ممتعة (في تقسيم الفطر واستعداد النفوس للعقيدة السليمة أو عدم استعدادها) من كتابه « الإسلام في عصر العلم »

كتاب في الاخلاق

نشر تحت هذا العنوان كلمات لسعادة عبد السلام عمود بك ، ونعتبرها أسلوباً جديداً طريفاً في الحق على تحسين الاخلاق ، وهذا البحث في حاجة الى كل تجديد فيه ، لأن الناس ملوا أن يقرأوا الاخلاقيات لكثرة ما نشر ونشر منها ، ويمدون من الكلام المأد ، وليس ما نحن بسبيله منه في شيء ، على أنه أبلغ في تبليغ الموعظة الحسنة للذين هم في حاجة اليها .

أبدع بعض الفنانين في تصوير وجوه الرجال بالزيت أو الماء أو الفحم ، ليروك من اختلاف القسمات تبان الاخلاق ، فتستطيع إذا أمكنك مع هذا الفن أن تقرأ في صفحة الوجه ، كما تقرأ في صفحة الكتاب - طباع الرجال وميولهم . وغاية الفنانين من ذلك أن تكون كل صورة بمثابة دراسة نفسية لصاحبها تفنى المطالع عن كتاب حياة صاحب الصورة .

أما أنا فلم تهينني تربيتي ، ولا ما مارست في عمل للتصوير ، وإن كانتا هياتاني لقراءة الاخلاق . وأريد هنا أن أصور لك بقلبي لا بريشتي ، في مجلة الأزهر لا على لوحة المصور ، أشخاصاً قد يكون أحدهم أنا أو أنت ، أو أحد الأصدقاء أو الأعداء لي أو لك ، صوراً متنوعة لشخص مجهول ، كالجندي المجهول ، قد تعرفه وقد لا تعرفه ، هو رمز على خلق معين . وسترى في الصورة الخلق واضحا والمنحى جلياً ، فإذا تعرفت على صاحب الصورة فكنته مثلاً ، أو كان أحد من تعرف ، أدركت أسباب شدوذ كنت تعجب منها في طباعه ، وفهمت نواحي كنت تجهلها فعدت أو حذرت .

لائس ياسيدي القاري أن الإنسان من صنع الظروف لا من صنع نفسه . فطر على خصائص وأشى مع أخرى ، فمن ولد مريض الأعصاب ليس كمن ولد سليماً ، ومن مات أبواه أو أحدهما وهو صغير ورباه قريب أو غريب ، ليس كمن مات أبواه أو أحدهما بعد أن اشتد وقوى ، ومن ولد في النعمة ليس كمن ولد في العسر ، ومن كان أبواه في وفاق في الحياة ، ليس كمن كان أبواه في شجار متزلي ، ومن لم يتذكر له الحظ ليس كمن تنسك له ؛ هذه بعض مؤثرات في النفوس تكونها وتصوغها ، تحليها أو تهيئها والمؤثرات شيء لا يقع تحت حصر فهو كمناسر الألوان تصبغ النفس البشرية بصيغتها ؛ فإذا كان اللون مفرداً كانت الصبغة منه ، وأما إذا كان لونين فالصبغة تكون منهما ، أو بقدر غلبة أحدهما ونحاذل الآخر ، وهكذا إذا تعدد مزيج الألوان . فقل لي بالله عليك ما حيلة الإنسان المسكين في هذه الظروف ؟

والآن نرجع الى ما اعترفت أن أصور لك بالقلم من صور ، وأرجوك أن تطالعها صورة صورة ، عليك تمر على صورة لك ، أو صورة لمن تحب أو تكره ، ولا تدع يا صديقي صورة تمر

دون أن تراها ، فربما كانت هي الصورة التي نملك ، وإن استطعت أن تقرى أخوانك الصور فافعل ، فاني أضمن لك ولهم لذة وتسلية ، تعدل الزمن الذي سيضيع في القراءة ؛ على أنك وإخوانك ستطلعون على مجهول من الاخلاق ، فترتبون سلوككم المستقبل مع الناس على ضوء ما فهمتم .

الصورة الأولى

سيدي صاحب هذه الصورة :

يقع أن يشعر الانسان بالنعطاف نحو آخر عند النظرة الأولى — أليس هذا مجربا ؟ — وقد بدوم هذا الانعطاف أو ينكش أو يتلاشى بمقدار ما يبدو من نفس هذا الآخر من استجابة في العواطف أو من تحاذل أو صمت .

وأنت يا سيدي لست من ذلك في شيء . فلا أنت تثير انعطافا عند الرؤية الأولى ولا اشمئزازا ولكنتك تؤثر في محيطك بصفات تملكها . فالكل يحس بك ويشعر بوجودك . حضورك ظاهر وغيابك ملحوظ ، ومن يعرفك في الناس لا يدري لماذا يحبك إن أحببك . ولا لماذا يكرهك إن كرهك . ومحبوك مختلفون على الصفات التي تحببهم اليهم . فالبعض يحبك لرجواتك مثلا ، والبعض الآخر لمخاطرتك . أولئك لصفة يرونها فيك ، وهؤلاء لصفة أخرى ، كذلك مبغضوك . وتصل محبة بعض محبيك الى غاية الإعجاب بكل ما تقول أو تفعل ، والبعض الى الحسد بما حصلت عليه أو أنفقت من عمل .

وأنت في ذاتك غير مقتنع بأن المعجبين بك على حق في إعجابهم ، وبأن حاسديك أنصفوك من أنفسهم ، تظهر في الناس أنك راض عن حالك وتبطن عنهم غير الرضى . وليس سبب هذا الاضطراب أنك لا تثق بنفسك ، أو لا تقدر عقلك حق قدره ، لا ، ولكن السبب أنك لم تنجح في كل ما حاولت ، ولم تحقق كل ما أملت ، ولم تولد بعيدا عن المسكان الذي تريد أن تجلس فيه بين الصغوف ، وتحس في قرارة نفسك أن الناس يعرفون عنك هذا التقصير عن الغاية ، ولكنهم ينكتمون ولا يظهرون أنهم يعرفون ذلك بحجالة لك .

ولذلك فأنت مرهف الحس ترى الإهانة قبل أن تتشكل بالقول أو الأفعال ، وتسلط نحو الناس سلوك المتكبر نوما ، والتحجيل قليلا ، والمتحفز دائما ، وهذا ما يفسر حياد الناس نحوك فلا ينمطون عليك ، ولا يشتمرون منك ، ولكن يتأثرون بصفاتك الحقة التي يجربونها عليك بعد طول العشرة ، ودوام المصاحبة .

لا تبتأس يا صديقي ، فان خصالك هذه : الكبر والحجل القليلين والتحفز الدائم للعمل من خير الخصال إذا حسن القيام عليها ، وردت عن الغلو وهي كفيلة أن تجعل منك رجلا متميزا ناجحا في الحياة . نعم ستحار أول الامر في السير وفق أهواء الأصحاب ، ولكن ثق أنه سينتهي الامر بالأصحاب أن يسيروا في ضوء هداك والسلام .

الصورة الثانية

سيدى صاحب هذه الصورة .

أنت بطبعك ناقد ومناقش ، ونقدك ونقاشك يتناولان كل موضوع ، ولا يقفان عند حد ما حذقت في علم أو صنعة . وأخذ عليك أنك أثناء الحوار تسفه أراء الزملاء بالفاظ نابية لتشغلهم بكرامتهم المجروحة عن متابعة محجتك ، فان لم تنجح فيهم هذه الحيلة واخفوا جراحهم ، وتابعوا حملتهم ، عمدت الى وصل النقاش بعبء بيمض بسرعة المدفع الرشاش ، حتى تتمدد رؤوسهم ويتولام التعب والانهيار ، ولا يبقى في الميدان غيرك ظاهر الانتصار .

وإذا رأيت للغير حسنة أو عملاً مجيداً ، واضطرت الى إظهار الاستحسان ، تكلفت المدح حتى أن سامعك يحسون في نبرات صوتك رنة غير المعتقد لما يقول .

أنت تعرف كل شيء ، تعرف متى تنتهى هذه الحرب ، وتعرف ما وقع فيه كل قائد من الأخطاء ، ولو كان حمل كل منهم بالصورة التى فى بالك لكان خيراً له ، وتعرف أخطاء قادة الرأى فى البلاد ، ولو كانوا تولوا الأمور على الصورة التى رسمها ، لما كانوا يمجدون ما يمجدون من متاعب وعنت . والأطباء مخطئون ، والمهندسون مخطئون ، والأساتذة فى الجامعة مخطئون ، وأنت وحدك على صواب .

مركز تحقيق كاميونر علوم راسدى

سيدى صاحب الصورة

أنت ماهر ، أنت تعرف طبائع الناس ، تعرف أن غالبينهم يفضلون أن يكتسبوا آراءهم ولو كانت صواباً على أن يدلوا بها أمام أمثالك ، خشية أن يمزأوا بها أو يسخروا منها . ولكن حذار يا سيدى ففى الناس عقول ، إن لم تكن فيهم شجاعة تدل على أنك مكابر عنيد .

سيدى

قلت لك أنك ماهر ، وأضيف أنك ذكى حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، فلماذا تضيع هذه المواهب بمساوى تضر ولا تنفع . لماذا تقدر نفسك فوق أقدار الرجال ؟ لهذا قنعوا فى تقدير كفايتك ، هذا الغلو يجر عليك كراهة الناس ونفورهم منك ، ويؤلهم عليك ، فهلا جعلت لآراء الناس مكاناً بجانب آرائك ، وحميت نفسك على النظر فيها ؟ إنك إن فعلت ذلك تجنبت مطارح الزلل ، وفزت بمحبة الجميع ، وإن لم تفعل فهذا هو الفرور ، أنت به شقى ، وأصدقائك بك أشقياء .

الصورة الثالثة

سيدى صاحب هذه الصورة

يظهر لى أنك لا تلقى بالاً الى ما يقع منك فى حق الناس من أخطاء أدبية ، قد تخرج الشعور ،

وتدعى الكرامة ؛ أو مادية قد تصيبهم بخسارة ومع ذلك يهمل أن يبقى شعور اخوانك نحوك صافيا لا يشوبه كدر ، فإذا تغير خاطر أحدهم لما صنعت به ، انفعمت به ، وعيرته بالتقلب وعدم الثبات على المودة .

ليس هذا منطقا سليما ، فلما الهادى إذا القيت فيه حصاة اضطرب لها ، والشعور هنا كالماء الهادى تماما ، فلا تطمع في أن تؤذى الناس في كرامتهم أو مقتنياتهم ولا يتكبدون .
أسمعك تقول لماذا لا توسع من صدورنا ، ولين من عرائكنا ، ونضفى الاعذار على أخطائنا ؟
لماذا لا نعمل بالقاعدة المربحة « اصفح وانس »

نعم أنا معك يجب أن نعمل بهذه القاعدة ، فانها هي زيت التشحيم اللازم لمنع الاحتكاك بين الاصداقاء في سير الحياة ، ولكن أراك تضع كل شيء على أكتاف الغير ونعنى أكتافك من كل شيء . توقع الضرر بصديقك وتربده على أن يصفح وينسى . وأنت أليس عليك واجب ، ألا يلزمك شيء ؟

أنظن أنه يمكن أن تبتمس لمن أصابه ضرر ، وأن تهون من الضرر كيما يصفح صديقك وينسى . لا يأسى الكرامة عزيزة على اخوانك ، والمقتنيات عزيزة على النفوس ، والأضرار التي تصيب هاته أو تلك لا تمنعها ابتسامه متكلفة ، وتهوين كاذب . ربما كانت الابتسامه والتهوين نافعين إذا كان الضرر واقعا من غيرك ، فانك بهما تأسو صديقا قد يفرق بين صديقين ، ولكن إذا كان الضرر واقعا منك ، فالابتسامه والتهوين يثيران النفوس ولا يطفان حداثها . فإنت في حاجة اليه حقا فهو النقيض ، نقيض الابتسامه والتهوين ، أى إظهار التألم والأسف والمجاهرة بالخسارة وفداختها ، ذلك لأن المودة تقوم بين الناس على أساس الاحترام المتبادل ، ورعاية المصالح ، وأن كل انحراف عن هذا الأساس — ولولم يكن مقصودا — يقتضى الإصلاح ، فاعمل إذا بهذه القاعدة ، قبل أن تدعو الناس إلى العمل بقاعدة « اصفح وانس » فنصيحتي اليك يا سيدى إذا وقعت في خطأ (غير متعمد من فضلك) ، وأصبحت أحدا في كرامته أو ماله أنت تسارع ونظير الألم كل الألم ، وتأسف أشد الأسف ، وتتقدم بالرغبة في الإصلاح ، وتصرح بانك لا تحب لنفسك عذرا مقبولا ، وأنت كمهما فعلت فلن تستطيع أن تصلح ما وقع . ثم راقب سرا أثر هذا القول على وجه من وقع عليه الضرر ، فانك ستجده يبتسم ويظهر التأثير باخلاصك الظاهر ، ثم يأخذ في تهوين الأمر عليك ، ويؤكد لك أنه لم يزل ضرر . بذلك تستبقى مودته ، وتستديم علاقته بك .

عبد السموم محمود

مُعْتَرِكُ الْفَلَسَفَةِ

نشرنا في العدد الماضي رأى العلم في المادة ، بقلم أحد أقطابه وهو الدكتور (جوستاف لوبون) ، وتبين القراء منه أن المادة ليست بأزلية ولا بأبدية ، وأنها ليست بشئ غير مظهر من مظاهر القوة ، وأنها توجد كل يوم وتفتى في القوة ، وقد وصل العلم الى ذلك بالنجربة . فإن كانت المادة إلهة الماديين ، فقد سقط عرشها ، ولم يمد لها ذلك السلطان على العقول ، واتجه البحث الى حقيقة تلك القوة العالمية . هذا انتقال علمي بعيد الغور ، قلب المقررات التي ائتمت على نظريتها السابقة رأسا على عقب ، وحول أنظار الفلاسفة الى نواح أخرى للبحث عن علة الوجود ، وظهور الكائنات فيه . وكلما أوغل العلماء في النظر تحت ضوء هذا الاكتشاف الخطير ، زادت حيرتهم واعترفوا بالعجز والرزوح .

نبغ العلامة الطبيعي (انشتين) ، صاحب نظرية النسبية ، ففسف ما قرره نيوتن في الجاذبية العامة ، وأقر علم الفلك على قواعد جديدة أرجح من قواعد سلفه ، فزاد في إضعاف ثقة العقول بالمقررات الطبيعية ، وصغر المحصول العلمي الذي كان يظنه أكثر الناس قد بلغ الذروة العليا المعرفة ، حتى قال أكبر علماء الطبيعة الانجليز وهو السير (وليم كروكس) في خطبة له ألقاها في المجمع العلمي البريطاني ، كما ورد في مجموعة خطبه صفحة ٨ :

« من بين جميع الصفات التي عاونتني في مباحثي النفسية ، وذلت طرق اكتشافاتي الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات أحيانا غير منتظرة ، اعتقادي الراسخ بجهل . إن أكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم بسرعة أو ببطء الى إهمالهم الكلي لجانب عظيم من رأس مالهم العلمي المزعوم ، لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وهمي محض أما أنا فإن تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حدا بعيدا . فقد تقبض هذا النسيج العنكبوتي للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، الى حد أنه لم يبق منه إلا كريمة صغيرة تكاد لا تدرك . ولست بأسف من الحدود التي تضيها أمامنا الجهالة الانسانية ، بل إني أعتبرها منشطا منقذا . وإني أعتقد بأنني لست أنا وليس أحد سواي أهلا لأن نعين مقدما ما ليس بموجود في الكون ، ولا أستطيع أنا ولا أحد غيري يستطيع أن نقول بأن شيئا بعينه لا يحصل حولنا في كل يوم من أيام حياتنا وليس لنا أقل علم به . انتهى .

الى هذا الأدب العالي وصلت نفسية علماء الطبيعة ، فكان من أثرها أن اتجهت هائمهم الى البحث في كل ما يعرض للنظر ، ولو كانت مما يظنه العلم مفروغا منه ، أو محكوما عليه

بمخالفته لاصوله المقررة؛ وكان مما عرض لهم بحث الحالات العميقة للنوم المغناطيسى، حيث يتجلى العقل الباطن للإنسان متمما بخصائص ما كان يحلم بها أبعد الناس خيالا، كالإتصال ببواطن المجربين ومعرفة ما فيها، ورؤية ما هو محبوب عنهم، بل ما هو في بلد غير الذى هم فيه، والإنباء بالحوادث المقبلة، والانتقال فى لمح البصر الى مسافات بعيدة والإخبار بما يحدث فيها. كل هذه الحوادث التى كانت يذكرها المؤلفون القدامى عن أهل الرياضات من المتصوفة، وينكرها العلماء، ويشهرون بقائلها، قد أثبتها التنويم المغناطيسى عمليا، وأبدتها المباحث الروحية فى حالات الوساطة والذهول تجريبيا، وأكملت بها الفلسفة الحقة علمها بخصائص النفس الانسانية، وبني عليها أقطاب العلم عقيدة راسخة فى بقاء الروح بعد الموت، فى دراسة غاية فى قوة الاستدلال على الطريقة الحسية.

من هؤلاء الأستاذ الكبير الدكتور السير (باريت) W. Barrett الانجليزى مدرس علم الطبيعة فى جامعة (دوبلين) عاصمة إيرلانده. فقد أودع تجاربه الروحية فى كتاب أسماه على عتبة العالم المحجوب *Au seuil de l'invisible* فوه فيه بما كشفه العلم حديثا من خصائص الروح الانسانية، واستدل بذلك على بقاءها بعد الموت. فرأينا أن نترجم هذا الفصل لقراء العربية، من طبعته الفرنسية، لما فيه من تقوية حجة المؤمنين، قال:

غامضة الروح الانسانية

« يجب إلقاء نظرة عملى على المظاهر المتنوعة للشخصية الانسانية التى ألمنا بها فى مفتتح هذا الكتاب، فيجدر بنا الآن، ونحن فى دور الاستنتاج مما كتبناه، أن نفس جانباً أعلى المسألة التى نحن بسبيلها.

« إن شخصيتنا، كما رأينا، كثيرة التركيب وشديدة الغموض. يجوز أن يكون موجودا عند جميع الناس، ومن المحقق أنه يوجد عند الكثيرين منهم، قوى عقلية تزيد عن قدرتهم الإدراكية، وعن وسع إرادتهم العادية. وإنى لأزيد على هذا فأقول: إن هذه القوى تتمدى حدود حواسنا، وحدود الزمان والمكان، وتتجاوز حتى مدى تفكيرنا ووعينا. فإذا كانت هذه الخصائص موجودة، (وقد كان مفكرون من أمثال شوبنهاور وهارتمان يؤكدون وجودها)، فإننا نستطيع أن نتوقع منها ظهور مظاهر أخرى غير ما يبدو من العلم الروحي ومن التنويم المغناطيسى، ومن الذهول النوى الخ.

« إن المنطقة المظلمة من ذاكرتنا ليست تنحصر فيما تسجله خفية من المؤثرات التى نفعل عنها أو نساها، ولكن الحقيقة أنه توجد فى نفوسنا منطقة خارجة عن شعورنا العادى، أى منطقة إدراك أعلى من المنطقة الطبيعية المعروفة، يمكنها أن تتلقى فكرة توجه إليها من روح كاسية بالمادة أو متجردة عنها؛ منطقة تربط حياتنا الشخصية بنبوعها الأول، أى ببخضم

الحياة الكلية (١) . وقد كان الفيلسوف الكبير (كانت) الذي كان موجودا قبل علمنا الصغير هذا ، يعتقد في هذا الأمر كل الاعتقاد [٢] . فقد توصل بقوة نفوذه العقلي الى تأكيد فكرته هذه ، واليك قوله فيها :

« إنه يكاد يكون مثبتا بأن الروح الانسانية ، حتى وهي في هذه الدار ، في حالة اتصال وثيق بجميع الكائنات المجردة عن المادة في عالم الروح ، وأنها تؤثر فيهم وتتأثر منهم ، ولسكنها باعتبار أنها كائن إنساني ، تبقى غير شاعرة بهذه التأثيرات في مدى حياتها الطبيعية في الدنيا » .
ثم قال بعد ذلك :

« فالإنسان والحالة هذه هو الكائن الوحيد الذي يعيش في وقت واحد في العالم المرئي والعالم غير المرئي ، ولكن بسبب عدم تجانس مدركات هذين العالمين ، فإن ما أدركه وأفكر فيه بصفتي روحا ، لا يبقى في ذاكرتي بصفتي رجلا كاسيا بالمادة »

« وكان (سويدينبورغ) (٣) يرى هذا الرأي نفسه ، ويكرره كثيرا ، فقد قال :

« الإنسان مركب ليعيش مشاركا في حياتين ، العالم الروحي والعالم الطبيعي ، الأول هو عالم الأرواح المجردة (الملائكة) ، والثاني عالم الانسانية .

« وكان بلوتان (٤) في القرن الثالث عقيدة تشبه هذه ، فكان يعتبر الآدميين من الكائنات التي تعيش في العالمين الروحي والمادي معا ، والأفلاطونيون الجدد وطائفة (الميستيك) أي الذين يعتقدون بأن الكمال الإنساني يتوقف على الاتصال بالله من طريق التأمل العميق ، يقررون بأن للروح حياة ثنائية إحداهما سفلى والأخرى عليا . وعند جامبليك ، وهو فيلسوف من الأفلاطونيين الجدد (من أهل القرن الرابع) ، الروح في حالة النوم تتحرر من القيود الجسمية وتدخل في عالم الحياة الإلهية للعقل ؛ وعليه فإن ليل الجسم هو نهار الروح »
« وعند (بلوتان) ولدي (فيلون) Philon قبله (من أهل القرن الأول) أن الوقوع في الدهول هو تحرر وفتي للروح تتصل في أثنائه بالعالم المطلق »

« رأينا من كل ماسر أن عددا عديدا من كبار المفكرين القدماء يوافقون المقررات الحديثة التي تقرر أن الأنسية الانسانية أعلى كثيرا من مما يدركه عنها وعيننا العادي . فكما أن جذر الشجرة

[١] الحضم بكسر ففتح فتفتح فتشديد هو البحر .

[٢] يزيد بالعلم الصغير ما هدى إليه العلماء من فتوحات عالم الروح بالتجربة .

[٣] سويدينبورغ فيلسوف سويدي كبير عرف عنه ، وذكره في كتبه ، أنه كان من الأفراد القلائل في هذه الدنيا الذين يرون الأرواح المجردة بأعينهم ويكلمونها وتكلمهم وقد اشتهر في عصره بذلك وثبت صدقه

[١٦٨٨ - ١٧٧٢]

[٤] بلوتان Plotin فيلسوف روماني من حامية الأسكندرية [٢٠٠ - ٢٧٠]

يوجد مدفونا في الأرض، كذلك جذر أنبتنا يتصل بعالم موجود بعد شعورنا الطبيعي . ومن هنا نفهم رأى الأفلاطونيين الجدد الذي مؤداه أن الروح ليست بمعروفة إلا بمعرفة جزئية بواسطة ما نسميه بعينا الطبيعي المحدود بتأثير الجسم عليه .

« يوجد بالتحقيق عالم خارج عن وعينا العادي ، لسنا منفصلين عنه في الزمان ولا في المكان ، ولكن بمحائل أقامته بيننا وبينه شعوراتنا المختلفة في هذا العالم المادي . وهذا المحائل هو ما أحسنوا في تسميته بعتبة الشعور ، وهي التي تحدد مدى وعينا الطبيعي . وعلى قدر ما يدفعنا ناموس التطور لاجتياز الصور السفلى لعالمنا الذي نعيش فيه ، الى الصور العليا منه ، فإن هذه العتبة تفتقل من مكانها ، وفي الوقت نفسه يزداد وعينا الذي نتمتع به . فتركيب القوقعة يجعل لها عتبة تفصلها عن أكبر أجزاء عالمنا المحسوس ، ويجري هذا الجري التركيب الجسماني للإنسان ، فإنه يضع له عتبة تفصله عن العالم العلوي الأوسع مدى ، الذي يشترك بروحه فيه ؛ ولكن هذه العتبة ليست دائمة الاستقرار ، ففي حالة الاستغراق في التأمل والتفكير ، وفي حالة الذهول المغناطيسي ، تنتقل هذه العتبة من مكانها ، وتجول الروح مؤقتا في عوالم لا تدركها الحواس الطبيعية . وفي حالة الكشف والأدوار العميقة للتنويم المغناطيسي ، تنتقل عتبة الشعور أيضا ، ويظهر للإنسان عقل أرقى من عقله العادي ، وفي حالة من الصفاء والقوة تكون مناسبة لدرجة تعطل وظائف الوعي العادي عنده قلة وكثرة .

« هذا المظهر الراق للعقل ، له ، كما أثبتنا ذلك في هذا الكتاب ، خصائص ومدارك أوسع مدى ، وأعمق من خصائص ومدارك عقله العادي . ولما كانت تلك الخصائص الباطنية للعقل يحجبها الجسم الانساني في هذا العالم ، فاننا نستنتج من ذلك أن الروح متى تخلصت من بذلتها الطبيعية *De sa livrée boueuse* ، تدخل في حياتها الأوسع مدى على نسبة بطلان الحواس الأرضية فيها الى الأبد . ولما يموت الأشخاص والمذنبين نجهم ، فإنه من المرجح في أكثر الحالات أن « نجرا وراء كل حجر » ، يشرق عليهم يسيرا يسيرا ، موقظا إياهم رويدا رويدا ، الى حالة الإدراك الأوسع والأعمق الذي ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، ينظرنا جميعا . وقد أحسن (شلي) Shelly (الشاعر الانجليزي الشهير ١٧٩٧ — ١٨٥١) في قوله :

« سلاما ، سلاما ، فإنه لم يمض ، وليس هو بنائم ، ولكنه استيقظ من حلم هذه الحياة » انتهى .

وقد نظمنا نحن المعنى المودع في هذا البيت فجاء نظمنا من الترجمات الحرفية وهي :

تعرّ فليس . بالميت ولا النائم لكنه استيقظ من حلم ذا العالم

محمد فريد وهدي

محمود سامي البارودي

— ٤ —

شعر البارودي يمثل حياته

حاكي البارودي في شعره الشعراء القدامى كما أسلفنا ، وبالغ في هذه المحاكاة حتى عارضهم في الأساليب والمذاهب بمعارضات كثيرة لشعراء مختلفين استقصاها أستاذه الموصفي في كتابه الوسيلة الأدبية ، فقد عارض أبانواس في مدحة الخصيب بن عبد الحميد المعجمي أمير مصر من طرف الرشيد حيث قال أبو نواس :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسير - القصيدة
فقال البارودي معارضا في الوزن والروي دون الغرض :

تلاهيت ألا ما يحزن ضمير وداريتُ ألا ما يُثْمُ زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره وفي الصدر منه بارح وسفير
إلى أن قال :

فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى لباء بفضلي جبرؤول وجبرير
ولو كنت أدركت النواصي لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور
وما ضرتني أني تأخرت عنهم وفضلي بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أوّل وبذا الجياد السابقات أخير
وقد أطراها الموصفي أطراء بالغا .

وقال أبو نواس يمدح الأمير محمد بن الرشيد :

يادار ما فعلت بك الأيام لم تبق منك بشاشة تستام

فقال البارودي في الوزن والروي دون الغرض :

ذهب الصبا وتولت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام القصيدة
وقد بالغ الموصفي في الثناء عليها بمبالغة مفرقة .

وقال الشريف محمد الرضوي يفتخر ويمدح أسلافه أهل البيت :

لغير الملا مني القلي والتجنب ولولا العلاما كنت في الحب أرغب القصيدة

فقال البارودي في الوزن والروي :

سواي بتحنان الأفاريد يطرب وغيري بالذات يلهو ويُعْجَبُ

وقال أبو فراس الحارث بن سميد عم سيف الدولة علي بن حمدان وكان يتولى له رئاسة الجيوش فأسرته الروم في بعض غزواته وبقي هناك مدة وكان يكتب لابن عمه قصائد يعتذر فيها من الأسر ويشكي شدة الحال ويطلب الفداء وسميت تلك القصائد لذلك بالروميات وهذه القصيدة أحداها :

أراك عصي الدمع شيمتك العبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر
بلى . أنا مشتاق وعندى لوعة ولكن مثلى لا يذاع له سر - القصيدة
فقال البارودي في الوزن والروي دون الغرض وقد قصر عن اللحاق بأبي فراس على رغم
إطراء المرصفي قصيدته وإعلاء شأنه فيها :

طربت وعادتنى الخيلة والشكر وأصبحت لا يلوى بشيخى الزجر - القصيدة
وقال النابغة الذبياني يصف المتجردة زوج النعمان :

أمن آل مية رائج أو مفند عجلان ذا زاد وغير مزود - القصيدة
فقال البارودي وقد سلك فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب
وارتياد المنايا وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء .

ظن الظنون فبات غير موسد حيران يكلا مستنير الفرقد - القصيدة
وقال البوصيري يمدح الرسول عليه السلام :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دما جرى من مقلة بدم - القصيدة
فقال البارودي في قصيدة سماها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » في الوزن
والروي والغرض :

يارائد البرق يعم دار العلم واحد الغمام الى حي بذي سلم - القصيدة
عارض البارودي هؤلاء الشعراء كما عارض غيرهم ، ولكنه على الرغم من هذه الرغبة الملحة
في المحاكاة قد برزت مقوماته الشخصية من وراء هذه المحاكاة ، كما هتكت حجب الأوضاع
وأغناء العرف والاصطلاح ، فكانت محاكاة مطبوعة ليس فيها من التقليد إلا الرغبة فيه ،
وكأنما البارودي في شعره - كما قال الناقد الكبير الأستاذ عباس العقاد - « يمثل لبس دور
الشاعر البدوي أو الاسلامي أو الأموي أو العباسي فوفاه : لغة ، وشعورا ، وزياء وحركة ،
نقله خلقا جديدا ، وجعل له تمثالا من نفسه وحياته فهو أصبح مبتكرا في الدور الذي اضطلع
به كما يستكر الممثل في انتحال أدواره وأبطاله ، وفرق بين هذا التقليد وتقليد العاجز الذي
يظلم في آثار القادرين بغير أداة المعارضة والمجازاة ، ولهذا نعرف البارودي من شعره على
صورة تنطبق تمام الانطباق على ما رواه لنا التاريخ من سيره وأخباره كما يقول :

فانظر لقولى تجد نفسى مصورة فى صفحتيه فقولى خط تمثال

وهذه آية الشاعرية الأولى لأن الشعر تعبير والشاعر هو الذى يعبر عن النفوس الانسانية فاذا
عجز عن وصف نفسه كان عن وصف غيره أعجز ، وكذلك ترى في الديوان ترجمانا لكل خالجة
من خواج هذه النفس الشاعرة وأثر من آثار حياته الظاهرة والباطنة ، فليس الذى في الديوان
شجاعة البارودي ومرحه وصبوته لحسب ، بل دهاؤه وإربته وحصافته التى حدثنا عنها
التاريخ من ذلك وصاته : —

اكنم ضميرك عن عدوك جاهدا وحذار لا تطلع عليه رفيقا
 فلربما انقلب الصديق معاديا ولربما رجع العدو صديقا
 وإذا بلغ التوافق بين خلأئق المرء وشعره هذا المبلغ . فتلك آية التعبير الصادق المبين
 أو تلك آية الشاعرية والملكة الفنية « اه .
 وأني لا أرتاب في أن حضراتكم جميعا ترون معي أن بيتي وصاته اللذين استشهد بهما هما
 البيتان المشهوران :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
 فلربما انقلب الصديق «م» فكان أعلم بالمضرة
 وليس لشاعرنا فيهما ألا حسن السبك وجمال الصنعة ؛ على أن تعليقنا هذا لا ينقص
 ولا يفيض من قوة كلام الناقد الكبير ؛ ومما يمثل شخصية البارودي في شعره هذه التشبيهات
 المصرية التي تتردد في أشعاره كما تتردد في نثره وأبرزها الاشارات الكثيرة الى الكهرباء
 كما قال يصف النجوم :-

وترى الثريا في السماء كأنها حلقات قرط بالجمان مرصع
 بيضاء ناصعة كبيض نعامة في جوف أدخى بأرض بلقع
 وكأنها « أكر » توقد نورها بالكهرباء في صفاوة مصنع

وقال في رسالة من سرنديب أرسلها الى أديب :
 « حدثت نفسي بمد أسلاك المراسلة لتبادل كهرباء المودة معكم » ويذكر المصورة الشمسية
 في قوله :

ألا يا لقوى من غزال مُرَبَّب يَجُول وشاحاه على فنن رطب
 تمرض لي يوما فمورت حسنه يبلورني عيني في صفحة القاب
 ويصف القطن فيقول :

حتى وصلت الى جناب أفيح زاهي النبات بعيد أعماق الثرى
 الى أن قال :-

والقطن بين مَلَوَزٍ ومنوَرٍ كالغداة ازدانت بأنواع الحلي
 فكان ماقده كُرَاتُ زمرُودٍ وكأن زاهره كواكب في الرؤا
 دبَّتْ به روح الحياة فلو هت عنه القيود من الجداول ، قدمشى

هذا لعمر أبيك داعية الرضا وسلامة العقبي ، ومفتاح الغنى
 الى غير ذلك مما يصور نفسه ويجعل فضله على عصره أوفى من فضل عصره عليه ؛
 ولكن هل خدشت تلك الزعامة ، أو كملت فسمت الى أعلى القمم ؟؟ ذلك ما سنعالجه
 في هذا البحث : « يتبع »
 أحمد إبراهيم موسى

بلاغة عبد القاهر

— ٥ —

عبد القاهر وأبو علي الفارسي :

نقل عبد القاهر عن أبي علي الفارسي في مبحث النظم وكونه يتوخى معاني النحو (ص ٢٨٥ دلائل) :

واعلم أنه ليس من كلام يعتمد واضعه فيه إلى معرفتين فيجملهما مبتدأ وخبراً ، ثم يقدم الذي هو الخبر ، إلا أشكل الأمر عليك فيه ، فلم تعلم أن المقدم خبر حتى ترجع إلى المعنى وتحسن التدبير . أنشد الشيخ أبو علي في التذكرة : نعم وإن لم أتم كراي كراك . ثم قال : ينبغي أن يكون كراي خبراً مقدماً ويكون الأصل : كراك كراي . أي نعم وإن لم أتم فنومك نومي ، كما تقول : قم وإن جلست فقيامك قيامي ، هذا هو عرف الاستعمال في نحوه ، ثم قال : وإذا كان كذلك فقد قدم الخبر وهو معرفة وهو ينوي به التأخير من حيث كان خبراً ، قال فهو كبيت الجماسة :

بنونا بنو أبنائنا وبنائنا بنوهم أبناء الرجال الأباة

فقدم خبر المبتدأ وهو معرفة ، وإنما دل على أنه ينوي التأخير المعنى ، ولو لا ذلك لكانت المعرفة إذا قدمت هي المبتدأ لتقدمها ، فافهم ذلك . هذا كله لفظه اهـ .

ونقل عنه مرة أخرى فقال في مبحث القصص بأنما (ص ٢٥٢ دلائل) : فصل في مسائل «إنما» قال الشيخ أبو علي في الشيرازيات : يقول ناس من النحويين في نحو قوله تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) : إن المعنى ما حرم ربي إلا الفواحش . قال : وأصبت ما يدل على صحة قولهم في هذا وهو قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامي الدمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

فليس يخلو هذا الكلام من أن يكون موجبا أو منفيا ، فلو كان المراد به الإيجاب لم يستقيم ، ألا ترى أنك لا تقول : يدافع أنا ولا يقاتل أنا : وإنما تقول : أدافع وأقاتل ، إلا أن المعنى لما كان ما يدافع إلا أنا فصلت الضمير كما تفصله مع النفي إذا ألحقت معه إلا حملا على المعنى ، وقال أبو إسحق الزجاج في قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة والدم » النصب في الميتة هو القراءة ويجوز : إنما حرم عليكم . قال أبو إسحق : والذي أختاره أن تكون (ما) هي التي تمنع إن من العمل ويكون المعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، لأن (إنما) تأتي إثباتا لما يذكر بعدها ونقيا لما سواه ، وقول الشاعر : وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي ، المعنى ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي . انتهى كلام أبي علي .

١٠ — عبد القاهر وصاحب الوساطة :

سبق أن قلنا إن ياقوتا يذكر في معجمه أن صاحب الوساطة كان شيخا لعبد القاهر ، وأن هذا كان يتبذخ به إذا ذكره في كتبه ويشمخ بأنفه بالانتماء إليه ، ولكننا دللنا على ضعف هذه الرواية ، وأياما كان فقد تتلمذ عبد القاهر لصاحب الوساطة ولو بالوساطة ، وإنك لتجدها يتقاربان جدا في التعبير عن قبح التعقيد وسببه ، فإذا قال صاحب الوساطة في ص ٨٧ من كتابه عند تعليقه على البيت :

وفاؤ كما كالربع أشجاء طاسمه بأن تسعدا والدمع أشقاء ساجه

ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة والتعقيد المفرط فيشك أن وراءها كنزا من الحكمة وأن في طيها الغنيمة الباردة حتى إذا فتشها وكشف عن سرها وسهر ليالى متوالية فيها حصل على أن وفاء كما يا عاذلى بأن تسعدانى إذا درس شجائى وكلما ازداد تدارسا ازدادت له شجوا كما أن الربع أشجاء دارسه ، فما هذا من المعانى التى يضيع لها حلاوة اللفظ وبهاء الطبع ورونق الاستهلال ويشع عليها حتى يهمل لها النسيج ويفسد النظم ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ويقدم ويؤخر ويعمى ويعوس ، ولو احتمل الوزن ترتيب الكلام على صحته فقليل وفاؤ كما بأن تسعدا أشجاء طاسمه كالربع ، أو وفاؤ كما بأن تسعدا كالربع أشجاء طاسمه ، لظهر هذا المعنى المضنون به المتنافس فيه .

قال عبد القاهر فى أسرار البلاغة عند الكلام على التعقيد ص ١٢٠ : وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله وكذك بسوء الدلالة وأودع لك المعنى فى قالب غير مستو ولا ملمس بل حشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجك منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن .

هذا وإنما يزيد الطالب فرحا بالمعنى وأنسابه وسرورا بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلا ، وأما إذا كنت معه كالعائس فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز فالأمر بالضد مما بدأت به . ولذا كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ويؤرقك ثم لا يروق لك .

وإذا استقبح صاحب الوساطة للمتنفى قوله ص ١٤٦ :

لو الفلك الدوار أبفضت سعيه لمسوقه شيء عن الدوران

ثم يقول : وهذا البيت من قلائده إلا أنك تعلم ما فى قوله : شيء ، من الضعف الذى يجتنبه الفحول ولا يرضاه النقاد .

هجنه عبد القاهر أيضا فى دلائل الإعجاز ص ٣٩

وإذا ذكر صاحب الوساطة من المستخف للمتنبي الأبيات :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل
الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل
وفاؤكما كالربع أشجاء طاسمه بأن تسعدا والدع أشفاه ساجمه

عدها عبد القاهر أيضا في دلائل الإعجاز ص ٦٦ :

وأخيرا يصرح عبد القاهر بالنقل عن صاحب الوساطة فيقول في التعليق على البيت :
بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الحدود

ص ١٦٢ أسرار

قال القاضي أبو الحسن رحمه الله : لو اتفق له أن يقول : احمرار في جوانبه بياض لكان
قد استوفى الحسن ، وذلك لأن خد الخجل هكذا يمدق البياض فيه بالحرارة لا البرودة بالبياض ،
والعبارة موجودة في الوساطة ص ١٥١

١١ — عبد القاهر وأبو هلال العسكري :

لم يرد لأبي هلال في كتابي عبد القاهر ذكر إلا في قوله في الكلام على التخييل ص ٢٤٨
أسرار : ومما هو خليق أن يوضع في منزلة هذه القطعة (يعني قطعة ابن الرومي في تفضيل
الرجس على الورد) ويلحق بها في لطف الصنعة قول أبي هلال العسكري :

زعم البنفسج أنه كمداره حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا في الحكم إذ مثلوا به فأشدد ما رفع البنفسج شأنه

ومع ذلك فانا نستطيع أن نقول إنه أفاد من كتابه الصناعتين كثيرا من بحونه البلاغية ،
فهو قد أخذ منه أن فكرة النظم تنمى المعنى لا اللفظ ، وبالموازنة بين كلام الرجلين تعتقد صحة
ما أقول : استمع الى أبي هلال يقول في كتابه ص ٥١ في الفصل الثاني من الباب الثاني :
« إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة الى إصابة
المعنى كحاجته الى تحسين اللفظ لأن المدار بعد على إصابة المعنى ، ولأن المعاني تحمل من الكلام
عمل الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداها على الأخرى معروفة ، ومن
عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى
نهياً له فيها من صنعة الكلام ما نهياً له في الأولى ؟ »

يتبع

رياض همدل

تخصص الأستاذية بكلية اللغة العربية

حياة خلافة النبي ﷺ

عثمان بن عفان

— ١٨ —

نوافذ الأحداث

خاتمة البحث :

أنهينا في مقالنا السابق الكلام على إشكالة جمع القرآن الكريم في مصحف واحد ليكون إماما للمسلمين في أقطار الأرض ، وبسطنا موقف عبد الله بن مسعود من هذا الجمع ، ولكن المنحرفين على عثمان رضى الله عنه لم يكتفوا في قسط عبد الله بن مسعود من هذه الأحداث الجسيمة بهذه الحادثة ولا حادثة عزله عن الكوفة حتى لاحقوه فمصبوا به حوادث أخر ، وكان عزل ابن مسعود عن الكوفة أصاب من أصحابه ومريديه ومن تعلق بهم من مسلمة الأعراب فوق ما يصيبه عزل وال عن ولايته من نفس من كانوا ينتفعون بتلك الولاية ، وهؤلاء الذين يتخذون الولاية مقما يستفيدون من ورائهم لا يباليون في سبيل مصلحتهم ، أصمرت الدنيا أم خربت ، وقد يكون الوالى الذي اتخذته أتباعه ذريعة للكسب من أى طريق صالحا مصلحا ، ولكن حيل هؤلاء النفعيين أدق من أن تمسك بها يد القانون ، فإذا اجتثت آمالهم من أعراقها بعزل هذا الوالى لسبب من الأسباب التى يراها صاحب السلطان الأعلى في الدولة تطبيقا لسياسة الإصلاح التى اختطها لنفسه ، قامت قيامة هؤلاء وراحوا يدبرون المكائد حسبما يوحى اليهم الجو الاجتماعى في البيئة التى يعيشون فيها ، وقد عرفنا حالة الجو الاجتماعى للأمة الاسلامية في عهد عثمان رضى الله عنه ، فانه كان جوا صالحا لبذور الفتن وفى ثناياه كثير من لقاحها ، فليرم المنحرفون بما معهم من سهام .

وابن مسعود صحابى جليل ، فكيف يعزل بالوليد بن عقبة ؟ وكيف يحرق عثمان مصحفه ويعتمد على مصحف زيد بن ثابت ، فلينفس عبد الله عن نفسه قليلا ، وليترد الناس فيما يقال ، ولينقل الى عثمان أن ابن مسعود ينقده نقدا شديدا قاسيا ، وعثمان رضى الله عنه رجل من البشر لا بد أن تتأثر نفسه مما يبلغه ، فماذا صنع ؟ كان من حقه أن يؤدب المتحدثين صونا لمقام الخلافة وسلطان الله فيها ، ولو كان من أعلام الأمة مثل عبد الله بن مسعود لأن كل مسلم مهما بلغ مكانه فهو دون الخليفة في هذا المقام ، وإصلاح أغلاط الولاية والخلفاء له طرائق مهدتها الشريعة الاسلامية ، ليس إثارة الفتن وتحريك الغوغاء منها فى شيء ، وقد أدب - قبل عثمان - بعض أعلام الأمة عمر بن الخطاب لأسباب أقل من هذه الأسباب بكثير ، فلم ينقصهم ذلك في نظر أتقيهم شيئا ، ولا طابوا عمر عليه ، وقد أسلفنا لك حادثة خفقه سعد بن أبى وقاص بالدره ، وتزبدك حادثة أخرى : فقد روى أنه رأى أبى بن كعب يمشى وخلفه نفر يتبعونه

فعلاه بالدرة ، وقال « إن هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع ! » فلم يغضب لذلك أبى ولا طعن به على عمر . وفى صنيع عمر وكلته الحكمة حكم إسلامية كان عمر أباً عذرتها فى هذه الأمة لو اتسع المقام للاستطراد لأوضحنا بعضها ، وحسب القارىء أن ينظر الى آدابنا وتربيتنا اليوم ، ويوازن بينها وبين آداب وتربية أسلافنا على ضوء كلمات الفاروق ، وعلى ضوء ما يصنع أكابرنا بأصاغرنا حتى أماتوا فى شباب الأمة عزة النفس ، وهى رأس مال الأمم الحية .

فقد يكون الذى وقع من عثمان رضى الله عنه هجر ابن مسعود وقطع عطائه ، والتاريخ يروى الى جانب ذلك : أن عثمان أتى عبد الله بن مسعود فى منزله واعتذر له وسأله أن يغفر له ، وقال له : يا أبا عبد الرحمن هذا عطاؤك نخذه ، فقال ابن مسعود : وما أتيتنى به إذ كان ينفعنى ، وجئتنى به عند الموت ، لا أقبله ، فضى عثمان الى أم المؤمنين السيدة أم حبيبة رضى الله عنها فسألها أن تطلب من ابن مسعود ليرضى عنه ، فكلمته أم حبيبة ، ثم أتاه عثمان فقال : يا أبا عبد الرحمن : ألا تقول كما قال يوسف لأخوته « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وإذا صح هذا الى جانب ما يقول المنحرفون فإذا كان على عثمان وهو خليفة المسلمين أن يصنع فى استرضاء ابن مسعود أكثر من هذا ؟

الى هنا يجب أن يسدل الستار على الأحداث المعصوبة بعبد الله بن مسعود ، فقد ظهر فيها الصبح لدى عيينين .

بقى من نوافه الحوادث التى عدها المنحرفون من العظام ، أن عثمان رضى الله عنه فى سنة ست وعشرين أراد أن يحدد فى الحرم وي زيد فى بناء المسجد الحرام ، فابتاع من قوم ما يملكون من أرض أو دور بجوار المسجد ، فرضى قوم وأبى آخرون ، فلم يثن ذلك واستعمل حقه كإمام أعظم للمسلمين ، وهدم على من أبى ، ولكنه لم يظلمهم حقهم بل وضع لهم الأمان فى بيت مال المسلمين ، وهذا هو مقتضى المصلحة العامة التى جرت عليها الشرائع السماوية والقوانين الوضعية ، ولكن ذلك لم يرضهم بل صاحوا به وشغبوا عليه ، فأمر بهم فحبسوا ، واحتج لنفسه فقال « قد فعل مثل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به » فكلمه عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم ، فإلى أى تعليق تحتاج هذه الحادثة وهى تحمل الرد عليها بين سطورها ؟

وأخرى هى أشد إضحاكا على هؤلاء المنحرفين الذين لم يقصدوا إلا تكثير الحوادث على أى نحو كانت ، فعثمان رضى الله عنه الخليفة الراشد ، ليس له أن يجتهد فى مسائل دينية لم ينص عليها ، فلمن كان الاجتهاد إذا لم يكن لعثمان وأضرابه ، قالوا : إنه أتم الصلاة فى منى وعرفة وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يقصرونها ، هذا هو منطق المنحرفين فى فهم الدين والاجتهاد فيه ، وهل كانت كل أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم منصرفة للوجوب ، لم يقل أحد من فقهاء المسلمين ذلك ، وهو قد قصر ولم يقتصر فعله بما يدل على الوجوب من نص أو غيره وإلا لما وسع كثير من فقهاء الأمصار القول بعدم وجوب القصر وأنه رخصة والائتمام عزيمة ، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، على أن عثمان رضى

الله عنه أبدى لفعله سببا واضحا حينما سأله عبد الرحمن بن عوف فقال : بلغني أن بعض حاج
اليمين والجفأة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتي ، وقد اتخذت بمكة أهلا ولي بالطائف
مال . وهذا سبب لو تأمل فيه العقلاء لرأوا أن الاتعام حينئذ أرجح من القصر ، وهو سبب لم يكن
موجودا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، وقد بالغ عثمان في إبعاد الشبهة
في فعله فقال إنه اتخذ أهلا بمكة وله مال بالطائف ، فيكون حينئذ مقبلا ففرضه الاتعام .

تلك هي عظام الحوادث التي دارت على محورها في الفتنة العثمانية فغيرت على الأمة
الاسلامية وجهتها السامية ، شرخناها في وضوح مناسين الحجة في طوايا الوقائع التاريخية وبين
المشخصات الثابتة لرجال الاسلام في ذلك العهد ، ولولا المقومات الذاتية الكامنة في طبيعة
هذا الدين دين الاسلام لكانت تلك الحوادث حربة أن تجعله مثل غيره من الديانات والنحل
التي لم تقو على صدمات الأحداث ، فذهبت معها في طيات التاريخ حتى كأن لم تكن شيئا مذكورا .

وفي الحق أننا لقينا في هذا البحث كثيرا من لذة التعبد في استخراج الحقائق من بين أشواك
الأساطير ، وتلفيقات المنحرفين ، وطريق تدوين التاريخ في القديم ، تلك الطريقة التي تعتمد على
تلقف الحوادث من الرواة دون تمحيص ، وهؤلاء الرواة تحنف بهم أحوال سياسية وأدبية
 واجتماعية تزعزع الثقة في رواياتهم ما لم تجد تلك الروايات صياغة حذقة يميزون الجيد من
الردى ، ويصفون الحق من الأباطيل ، مثل ما هيأه الله تعالى لهذه الأمة في نقل حديث النبي
صلى الله عليه وسلم . وتدوين التاريخ بعيد كل البعد عن هذه التحقيقات ، بل لا يبعد من يقول
إن العصر الذي دونت فيه أقدم مصادر التاريخ الاسلامي لا يبرأ من الغرض في طريقة إثبات
الوقائع ، ولا سيما عن هذه المرحلة التي اعتبرتها السياسة مبدءا للسلطان الأموي الذي كان
بغضنا أشد بغض الى العباسيين ، وفي فلال سلطنتهم دون التاريخ ، ومهما أحسننا الظن
بالقائمين على الرواية والتدوين ، فإن شيئا فوق طاقتهم من المؤثرات السياسية والاجتماعية
لا بد أن يتدخل من قريب أو بعيد ، ولذلك يجد الباحث في الحادثة الواحدة عدة روايات ،
وهنا تتجلى مهمة الباحث في الموازنة والاستنباط فيستخلص منها معالم الحق ويرسم له صورة
إن لم تكن هي الحقيقة كلها فهي أقرب ما تكون اليها .

ومما زاد في صعوبة هذا البحث تلك الطريقة التي يسلكها بعض المعاصرين من الباحثين
في التاريخ وهم يزعمون أنهم ينهجون النهج العلمي القائم على النقد والتحليل ، وكان المظهر
الاسمي لهذا النهج العلمي تمحيض النقد بذكر المعايير ، ولست أنكر أن النقد الجامع للمعائن
والمعايير أجدي على الدراسات التاريخية لأنها تقصد للعبارة والاقتداء ، وإذا عذرنا بعض
المستشرقين الذين يخطئون في بدائنه التاريخ الاسلامي ، فلا نعذر باحثينا من كتاب الشرق
في مجارة أولئك المستشرقين في أخطاء أخرى غير تلك البدائنه أو تلقف الروايات من غير تمحيص .

وبعد ، فقد قال لي بعض من يقرأ هذه البحوث . إنك كنت في سيرة عثمان رضى الله عنه
محاميا ، قلت أجل ولسكنه محام يتحرى الصدق ، وما أخرج تاريخ الاسلام في هذا العصر
الى محامين من هذا الطراز ؟

These promises seem to be created merely by religious enthusiasm, but readers will see that we shall endeavour to keep them if Allah pleases, without disregarding the principles of scientific investigation.

We have shown, in another book, that European scholars have discovered that our forefathers had been working on the evolution theory, the latest of all scientific theories, on a scale larger than the present. Would it not be fit for a Moslem, deeply rooted in Islam, to reveal theories contained in that religion, which contemporary sociologists have not yet been able to approach?

Concluding this chapter let us face the facts frankly. Islam is either a true or a false religion. If it is a false or an out-of-date religion, it can only die or fade out gradually until it is forgotten, and in this case we should leave it die peacefully in the hearts of the illiterate as suggested by some writers who are aping Western opinion about religion generally. If it is true, then the man to whom it was revealed is the last apostle and the Koran is the last Divine revelation. Again if it is so it should possess everything that appeals to the minds of the people at all times and particularly the minds of the people of the twentieth century, the richest of all ages in science, invention and philosophy.

Islam, indeed, is full of everything that strongly appeals to the mind, and we shall begin, in the next chapter, to prove it. If we succeed, it will be useless to ask those who spread doubts about Islam to stop, for its beauty will compel them to join in revealing its qualities.

are ready to avail themselves of the circumstances. It is, then, out of mere ignorance of social principles that some people try to spread doubts about religion and its men.

Our endeavour in this chapter is to prove that it has been quite necessary to defend religion using our knowledge of science and philosophy, not only to give people the spiritual nourishment which they greatly need, but also to guard the Religion of Islam against the doubts which threaten to break up Moslem communities and which are raised, deliberately or otherwise, by certain writers.

To be sure, it is quite dangerous to suffer these doubts about religion to spread abroad, for if a group of people in this country were, somehow, to deprive our society of religion, we should sink to mere licentiousness, especially because of our great infatuation about Western civilization. Degeneration would be so rapid that we should be left no time to think. We should lose both our personal and social wills, and our most wise men would slip, unwillingly and under unknown forces, into the common current.

There are thousands of men of science in Europe and America who are engaged in experiments dealing with spiritualism. Following the strict rules of science, they were able to draw graphs of the spiritual world. In addition to the fact that we are incapable of such achievement we try to keep these researches in the dark or, at least, we spread doubts about them, as if we were to teach those men of science how to doubt and how to revert to materialism which they had abandoned as worthless. (Vide "Over the Ruins of Materialism" by the present author).

We are infatuated about the principles which are overpropagated by social reformers in the two continents of Europe and America. They are ably and eloquently propagated that their very eloquence makes us believe that we are devoid of their like and we readily repeat them decorated with attractive words and philosophic charms. But we should not forget that we are the possessors of social principles that excell those inculcated by European and American reformers.

We shall, however, reveal those principles which we have abandoned out of ignorance and inability to exhibit them in the world-fair of thought, and it will be a great service to society to do so. The world will recognise that Islam, to revive the human race, did more than all that the present civilization has been able to do. Islam will be the ideal that no other ideal can approach.

The questions which we shall endeavour to deal with in this book will be the structure of Islam, the characteristics of the nation created by it, its ideals, its safeguards, the causes of its weakness and deviation from the right path, its being on the verge of recovery, its return to its old system and, last but not least, we shall prove that the principles of Islam will be the social basis which the world will ultimately adopt as the only way of real reformation.

Religion is Still One of the Elements of Social Structure.*

Nations cannot live without religion, for if that were possible, European and American nations would have been able to do so, being deeply rooted in civilization and foremost in philosophy and science and especially because they, unlike Eastern countries throughout all their history, had suffered much from religious wars and ecclesiastic tenacity. France, the forerunner of all nations in acquiring knowledge and civilization, tried at the highest water mark of her great revolution to repudiate religion and rid herself of it, but she could not manage to do it. Sure enough this is remarkable in countries which were at once the birth-place of scepticism, the origin of the true knowledge of cause and effect and the seat of all extreme beliefs, where thought knew no limits in intellectual or spiritual questions. The significance of this is quite obvious. Religion has mingled with their social texture and has become one of the elements of their intellectual and national structure, and consequently it could not be separated from them without going as far as disintegrating their beings, so to speak, into their primary elements and pouring their social structure into a new mould. But this is unattainable without the occurrence of a most radical change which has not yet taken place and is not likely to take place under the present intellectual and psychological condition of man. Nations, therefore, are following their life-long course, keeping up all their inherited traditions in spite of the fact that these nations have been freed from traditions that impeded their activity.

- If some Moslems of to-day imagine that they are able to push their countries into a course which no country can follow by attacking religion in an indirect way and by spreading doubts about it, they will be in fact helping external forces to undo their entity.

We should have excused those if religion had even a small share in obstructing the path to progress, if religion antagonized a tendency or clashed with a view. But it has not. It is a well known fact that Mohammad Aly Pasha, the founder of Modern Egypt, introduced all that he could introduce of science, art, institutions and industries without in the least provoking religious resistance or resentment at a time when men of religion had an unlimited power over every thing. But the acceptance of the Wali's reform was not inspired by fear. The history of Islam — and that of the early times of Islam in particular — is full of the like of those reforms. It gives some good examples where importing knowledge from abroad was considered necessary. Yet that was centuries ago. To-day men of religion show more leniency and

* This is Chapter I of M. Farid Wagdi's work "Islam is a Universal Everlasting Religion" translated by A. Shoukry Top-Sokal.